

الباب الثالث

تلخيص حضارة المغرب الإسلامي

فصلان

الفصل الثانى عشر

الحضارة الفكرية والثقافية

- 1- تمهيد
- 2- بنو مدرار / حاضرتهم سجلماسة
- 3- بنو رستم / حاضرتهم تاهرت
- 4- الأدراسة / حاضرتهم فاس
- 5- الأغالبة / حاضرتهم القيروان
- 6- الفاطميون / حاضرتهم المهدية
- 7- المرابطون / حاضرتهم مراكش
- 8- الموحدون / حاضرتهم مراكش وأشبيلية
- 9- بنو مرين / حاضرتهم مراكش وفاس

الفصل الثاني عشر الحضارة الفكرية والثقافية

تمهيد:

استغرق حكم إمارات المغرب ودوله أكثر من ثمانية قرون ابتداءً من إمارة بنى مدرار وإنهاءً بالإمارات المحلية وخلال هذه الفترة تركت هذه الكيانات تأثيراتها في الحياة الفكرية والعلمية والثقافية والاجتماعية، حيث شيدت المدن الحواضر التي أصبحت مراكز علمية يفد إليها العلماء وطلبة العلم من سائر أنحاء المغرب والمشرق على السواء، ولعل أهم أثر تركته هو سعيها في نشر الإسلام بين الجماعات والقبائل المختلفة سواء في بلاد المغرب أو المناطق الواقعة جنوبى الصحراء، فتقبلت منهاجة ومسرفه ولمتونة الأفكار الإسلامية كما عقدت حلقات الدرس لتدريس العلوم الإسلامية والعلوم العقلية وأقيمت المناظرات بين العلماء والفقهاء في مختلف المسائل الفقهية والشرعية ووجدت مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم وهى بمثابة ما تقوم به المدارس في الوقت الحاضر

لقد ظهرت الحركات الفكرية وهى تمتلك تراثاً غنياً تمثل في مجموعة الآراء والمقولات والإستنباطات في تفسير النصوص الدينية على نطاق الشريعة والسياسة والفلسفة وفنون الحكم وكان أغلب مؤسسي هذه الحركات من حملة العلم والفقه فوضعوا أساساً للحياة الفكرية لإماراتهم ودولهم ورعاياهم فتبنوا العلماء وأخذوا بأيديهم ونشروا العلوم وشجعوا الناس على طلب العلم وأنشأوا المساجد والزوايا والتكايا والمراكز والمدارس التى كان يختلف إليها العلماء لتدريس أصول الدين والشريعة وعلوم الرياضيات والطب والكيمياء وغيرها

ولعل من المفيد أن نستعرض الجهود الحضارية الفكرية التى مهرتها الإمارات والدول في المغرب الإسلامى وما خلفته من معالم وصروح علمية لعبت دوراً كبيراً في ظهور العلماء والفقهاء والفلاسفة وأصحاب الفكر الذين سجلوا سمار أفكارهم في مصنفات وكتب ورسائل فاحتلوا منزلتهم العلمية في العالم الإسلامى وأعترف لهم زملائهم العلماء والفقهاء المشاركة بما وصلوا إليه في العلوم والفنون والآداب وجميع صنوف المعرفة:

بنو مدرار / حاضرتهم سجلماسة

عرف عهد بنو مدرار "حب العلم والرغبة في طلبه وتحصيله"⁽¹⁾ " وأن أهل سجلماسة كانوا يجلون العلم ويطلوبونه وهم يباينون أهل المغرب في المنظر والمخير مع علم⁽²⁾ "، وهناك ما يشير إلى إهتمام المدرارين في عقد حلقات الدرس في العلوم الإسلامية وكذلك مناظرة مخالفينهم ومجادلتهم في العلوم الدينية وعلوم العربية والعلوم العقلية، وكان لأتباع المدرارين من العلماء والمتعلمين في مدينة القيروان الذين كانوا يبدون نشاطا في العلم والفقه والفلسفة⁽³⁾.

ولكن المؤسف أننا لا نمتلك معلومات وفيرة ومفصلة عن مساهمات المدرارين في الحركة الثقافية والعلمية إذا قورنت بما نعرفه عن غيرهم في المغرب الإسلامي ولعل السبب على أكثر الإحتمال أنه لم يتبقى من أثارهم الفكرية ما يجعلنا نأتى بكثير من التفاصيل والمعلومات المهمة فيما عدا الإشارات التى تعرضنا إليها، وربما كانت أثارهم عرضة للتلف والإهمال، كما لا يوجد من المؤرخين والكتاب المعاصرين لهم ما يمكننا أن نجد عندهم أخبار سجلماسة وبنى مدرار واهتماماتهم بالحركة الفكرية والعلوم، أو أن عداوى الأيام قد أتلقت مؤلفات من اهتم بتواريخهم وتصانيفهم أو عفت عليها يد الحدثان بقصد أو بسدون قصد غير أن الموجود من شتات المعلومات عنهم بهذا الصدد يمكن أن يلقى بعض الضوء على نشاطهم ودورهم في الحياة الفكرية، ليس فقط في داخل مدينة سجلماسة وإنما في مدن المغرب الأخرى حيث يتوزع بعض علماء المدرارين ومناصروهم في إمارات الأغالبة والرسامين والأدارسة.

(1) إسماعيل حامد، نبذة في تاريخ الصحراء القصوى ص 7.

(2) ابن حوقل، صورة الأرض ص 90 .

(3) المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ج / ص 276 ، الدباغ ، معلم الإيمان في معرفة أهل القيروان ج ، ص 55 .

بنو رستم / حاضرتهم تاهرت

كان مؤسس إمارتهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان، وهو أحد ما يعرف بحملة العلم الخمسة، الذين هم عاصم السدراتي من غرب الأوراس وأبو داود القبلي النفزاوي من إفريقية وإسماعيل بن ضرار الغداسي من جنوبي طرابلس وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري من اليمن وكانوا قد تلقوا العلوم الدينية في العراق وفي مدينة البصرة على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وهو من أبرز العلماء في هذه الفترة. وكان عبد الرحمن بن رستم قضا خمس سنوات يتلقى علومه هناك فأصبح بارعاً في علوم الدين واللغة والفلك⁽¹⁾، وأكسبه ذلك مهارة في وضع أساس للحياة الفكرية لإمارته ورعيته بتوسيع الحركة العلمية والثقافية بتشجيع العلماء ونشر العلوم حتى أصبحت تاهرت مركزاً علمياً مرموقاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي حيث ضمت المساجد والمراكز والمدارس وإلى جانب تاهرت، ظهرت مدينة شروس في منطقة جبل نفوسه ومدينة جادوا وقرية إجناند وجزيرة جربة ومنطقة ورجلان، مراكز للعلم والثقافة حيث كانت تجلب إليها الكتب والمصنفات والرسائل من العراق ومصر وبلاد الشام والحجاز، كما كان يؤمها عدد غير قليل من العلماء وطلبة العلم ومريديه ليتعلموا ويتفقهوا على يد علماء تاهرت وفقهائها من أمثال ابن أبي إدريس وأحمد التيه وأبي العباس بن فتحون وعثمان بن الصفار وأحمد بن منصور وأبي عبيدة الأعرج⁽²⁾، ولكن العالم الشيخ مهدي النفوسي الذي قتله الأغالبة فيما كان يرافق جيش الرستميين الذي حاصر مدينة طرابلس في عهد عبد الوهاب عبد الرحمن بن

(1) أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 42.

(2) محمد علي دبور، تاريخ المغرب الكبير ج3 ص392 .

رستم، ومحمد بن يانس وأبو الحسن الأبدلاتي وعمروسي بن فتح ويعقوب بن أفلح وغيرهم، كانوا يمثلون القمة في العلوم الدينية وعلوم العربية والفلك⁽¹⁾.

لقد كانت العربية الرستمية لإمارة الرستميين وهي لغة التأليف لهؤلاء العلماء والفقهاء، فالكتب والمصنفات التي كانوا يتداولونها كانت باللغة العربية وإن الرستميين كانوا يقدسونها ويحاولون نشرها بين أهل المدن، فكان الناس يتنافسون في تعلمها وإتقانها ويعكفون على دراسة نحوها وقواعدها⁽²⁾ كما نلمس هناك حركة دائبة لترجمة الكتب اليونانية والهندية والرومية والفارسية إلى العربية يشجعها ويدعمها عبد الوهاب بعد أن خلف أباه في الحكم الذي هو نفسه محباً للعلم وفقياً، صنف كتاب "نوازل نفوسه" وهي مجموعة من الفتاوى الشرعية، كما كان أفلح بن عبد الوهاب عالماً في الحساب والفلك وشاعراً⁽³⁾

ومن المعالم الحضارية العلمية للرستميين (مكتبة المعصومة) التي أسسها عبد الوهاب بن عبد الرحمن في قصبة المعصومة في مدينة تاهرت، وكانت تضم أمهات الكتب والمصنفات الدينية والفنية وكتب الصنائع وكان يربو عددها على الثلاثمائة ألف مجلد⁽⁴⁾ ويشير الوسياني إلى أن البصريين في العراق استنسخوا معظم كتب المشاركة وأودعوها في هذه المكتبة، فأقبل المغاربة على دراستها⁽⁵⁾ ولكن الدرجيني يذكر إن مكتبة المعصومة خاصة بالبيت الرستمي الذي وصفه بأنه

(1) وممن نبغ من النساء في مدينة تاهرت، أخت أفلح بن عبد الوهاب التي لم تذكر المصادر شيئاً عنها سوى أنها برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم (د. السيد عبد العزيز، المغرب الكبير ج 2 ص 575 .

(2) محمد علي دبوز، المصدر نفسه ص 410.

(3) ومن شعره يمجّد العلم وأهله:

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يريك أشخاصهم روحاً وأبكاراً
حي وإن مات ذو علم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك أوطاراً
وذو حياة على جهل ومنقصة كميت قد ثوى في الرمس إعصاراً

د. السيد عبد العزيز، المصدر نفسه ص 584 .

(4) أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 42

(5) سيرة أبي الربيع بن عبد السلام، الورقة 779

"بيت العلوم جامعاً بفنونها من علوم التفسير والحديث وعلم اللسان وعلم النجوم والأصول والفروع والفرانض"⁽¹⁾ وإلى جانب مكتبة المعصومة هناك مكتبات في المدن الرستمية تحتفظ بالكتب والتصانيف، وهي مكتبات عامة يؤمها الناس من مختلف الفئات والطبقات.

ولعل من أبرز مظاهر الحياة الفكرية التي عرفت تاهرت في هذه الفترة، المناظرات العامة التي كان يدعى إليها سكان المدينة وكانت تجرى على نهر مينة وأصبح لها صدى واسعاً في العالم الإسلامي وقد تناظر فيها شيوخ الإباضية من الرستميين وعلمائها مع علماء المعتزلة ومجتهديهم وتناولت موضوعات في الفقه والشريعة وفي العلوم العقلية والنقلية⁽²⁾.

والظاهر أن الفاطميين كانوا مقتنعين بالمنزلة العلمية التي كان يتمتع بها الرستميون ويدل على ذلك استحوادهم على مكتبة المعصومة والمكتبات الأخرى وتجريدها من محتوياتها، ولكن لا صحة لما ذكر عن إجراءات الفاطميين بحرقها بعد أن حصلوا منها على الكتب النفسية في الرياضيات والطب والفلاحة والهندسة والفلك بل نقلوا كتبها ومصنفاتها جميعاً إلى بلادهم بدون استثناء⁽³⁾.

(1) طبقات الإباضية ج 1 ص 136

(2) د. الحبيب الجنحاني، المصدر السابق ص 141

(3) د. موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 345 - 346

الأدراسة / حاضر نهم فاس

ترك الأدراسة أثراً واضحاً في الحياة الثقافية، ليس في المغرب الأقصى، فحسب بل في جميع أنحاء المغرب الإسلامي، فقد قاموا بدور ملموس في نشر الإسلام وتبني الحركة الإسلامية، فلم يمضي وقت طويل على قيام إمارتهم حتى برزت مدينة فاس وأصبحت مركزاً من المراكز الثقافية والفكرية يشد إليه العلماء والمفكرون وطلبة المعرفة، الرجال من جميع العالم الإسلامي، وكان المسجد الجامع المعروف بـ"الشرفاء" أو "الأشراف" الذي أسسه إدريس بن إدريس سنة 192 هـ بداية لإقامة جامع القرويين الذي اكتسب بدوره صبغة علمية وجامعية عالمية⁽¹⁾.

لقد تلقت مدينة فاس في عصر الادراسة، تأثيرات علمية وفكرية وثقافية وحضارية مادية مزدوجة من بلاد الأندلس ومن القيروان، فالمدينة كانت تتألف من عدوتين واحدة للأندلسيين وأخرى للقيروانيين، وكان أهل كل من هاتين العدوتين، فقلوا كثيراً من تراثهم العلمي والمعرفي إلى مستقرهم في فاس ولا تخفى الأهمية التاريخية لكل من القيروان وقرطبة عاصمة بلاد الأندلس وبخاصة من الناحية العلمية والحضارية، فهما مركزان بارزان في سعة العلم والثقافة وإن "الوافدين من الأندلس، نزلوا بعدوة الأندلس والوافدين من القيروان سكنوا بعدوة القرويين، فغمرت العدوتان بالسكان بفضل هؤلاء الوافدين وتمدنت بهم"⁽²⁾.

(1) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 118 هامش رقم 2

(2) د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 496 (نقلا عن مؤرخ غرناطي مجهول من القرن الثامن الهجري [وهي مجموعة متفرقات تاريخية] تسمى الزهرة المنثورة في الأخبار المأثورة.

الأغالبة / حاضرتهم القيروان

يتجلى أثر الغالية الثقافي والعلمي طوال مدة حكمهم لأفريقية وصقلية الذي استغرق أكثر من القرن، فإيا تركوا من بصمات واضحة في الحركة الثقافية والفكرية، فليس جديداً على هذه الأسرة المستنيرة، أن تنهض بنشر مبادئ الحضارة أو أن تضع لها مفاهيم صحيحة. إن مؤسس إمارة الأغالبة إبراهيم بن الأغلب بن سالم التيمي هو نفسه كان " فقيهاً وأديباً وشارعاً وخطيباً ذا رأي ونجدة وبأس وحزم، وكان حافظاً للقرآن عالماً به " (1) كما كان ابنه زيادة الله 23/ 201 هـ أكثر أهل بيته أدباً وأفصحهم لساناً وأوسعهم فهماً ومعرفة، حيث اختار له أبوه " علماء العربية ورواة الشعر ليقوموا على تعليمه " (2) أما أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد 289 - 290 هـ فقد " جالس أهل العلم وشاورهم " (3).

غير أن أكبر ماثرة تركها الأغالبة في تاريخ الحضارة العربية والفكر الإسلامي هو فتحهم لجزيرة صقلية في عهد زيادة الله بن إبراهيم، بقيادة الفقيه القاضي أسد بن الفرات (4) فقد خرج معه أشرف أفريقية وفقهاؤها وعلمائها من العرب والجنود الأندلسيين وأهل العلم والبصائر " (5).

وتتبدى أهمية صقلية من الناحية العلمية، إنها أصبحت مركزاً للحضارة والعلم ومصدراً لإشعاعات الثقافة الإسلامية، واحتلت شهرة واسعة في هذا المجال في العلم الإسلامي وذلك طوال الحكم العربي فيها وبعده بقرون عدة حيث أنجبت جمهرة من العلماء والفقهاء والشعراء، ذاع صيتهم وانتشر أثرهم.

(1) ابن عذاري، البيان ج 1 ص 92 - 93

(2) ابن الخطيب، أعمال ص 16 - 17

(3) ابن عذاري. م. ن ص 123

(4) وهو "مصنف الأسدية" في الفقه المالكي، وكان قاضياً للقيروان

(5) ابن عذاري م. ن. ص 103

ومن المفيد القول، أن عهد الأغلبية كان يتسم بإتاحة الحرية الفكرية والثقافية وانتحال البحث في المسائل المذهبية وقيام المساجلات والمناسطرات والمجادلات حول مسائل العلم والفقه والأدب بين الفرق الإسلامية، فيشير ابن أبي دينار إلى أن أبا سعيد كنون الملقب "سراج القيروان" لعلو منزلته في الفقه والعلم الذي أستقضي على مدينة القيروان "منع أهل الأهواء من المسجد الجامع وكانوا قبل ذلك يجتمعون فيه ويتظاهرون بمذاهبهم مثل الإباضية والصفورية والمعتزلة، منعهم من الاجتماع" (1) ويبدو أن هؤلاء كانوا يشكلون تظاهرة علمية وفكرية في المناظرة والطرح والمحاكاة في المسائل الجدلية المتعلقة بالعقائد والشرائع والعلوم الدينية والعقلية، ومن المحتمل أن تنافسهم وتصارع آرائهم بحرية واسعة نجم عنه ظهور مواقف سياسية لهذه الطوائف والجاليات، وليس أدل على ذلك من أن يقرر قاضي القيروان منعهم من الاجتماع وتبديد حلقاتهم كما منعهم من مزاوله مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم (2).

والحق إن القيروان خلال حكم الأغلبية أضحت من كبريات مدن العلم والثقافة ليس في المغرب، بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد استقطبت إليها العلماء والفقهاء والمدرسين، كما كان يفد إليها طلبة العلم من بغداد ودمشق ومصر ومن حواضر المغرب من تاهرت وكلماسة وفاس وقرطبة للتعلم والدرس والمناظرة على شيوخ الفقهاء وأصحاب الفرق، فيذكر النفوس قيام بكر بن حماد التاهرتي بمجالسة علماء القيروان ومناظراتهم في أمور الدين والمذهب (3).

أما تونس، فقد لعبت هي الأخرى دوراً كبيراً في ازدهار العلم والفقه والأدب وتركت أثرها الفكري في إفريقية وبلاد المغرب، وقد وصفها البكري بقوله: " أنها دار علم وفقه ولي منها قضاء إفريقية جماعة كثيرة" (4) ولعل هؤلاء الذين يشير

(1) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص 50

(2) د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 99

(3) الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ج 2 ص 71

(4) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 40

إليهم البكري هم النخبة التي كانت تتولى مناصب لقضاء في جميع إفريقيا والمغرب.

والظاهر أن الأغلبية كانوا يتشبهون بالعباسيين وخصوصاً فيما يتعلق بإيجاد المؤسسات العامة الثقافية منها والدينية فقد أسسوا مكتبة " بيت الحكمة " التي أشرف على قيامها وتجهيزها الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سنة 290 هـ وضمت مختلف الكتب والمجلدات والرسائل والتصانيف جلبت من بغداد والأندلس وقد أصبحت فيما بعد تشبه إلى حد كبير ما كان سائداً في بغداد في عهد الخليفة العباسي المأمون⁽¹⁾، وإلى جانب مكتبة بيت الحكمة، توجد مكتبات عامة مماثلة في المدن الأخرى، كذلك أصبح مسجد القيروان الذي أسس سنة 50 هـ وجامع الزيتونة سنة 114 هـ في تونس بمثابة جامعتين علميتين يختلف إليها طلبة العلم طوال عهد الأغلبية وبعده فضلاً عن مسجد سوسة ورباطها اللذين أصبحا مدرستين لأصول المذهب المالكي.

(1) عثمان بن الكعك، الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط ص 112

الفاطيون / حاضرتهم المهدية

تتميز الحركة الثقافية والفكرية التي أرسها الفاطميون في بلاد المغرب الإسلامي وفيما بعد في بلاد مصر، بالعمق والشمولية، فقد تعهدوها بمستلزمات النمو وأثروها باستيعاب علمانهم ونضجهم واهتمام خلفائهم بالانشغال بالعلوم والمعارف والفنون والآداب، فقرأوا العلماء والفقهاء والقضاة والمحدثين والقراء والأدباء والشعراء وأصحاب المواهب والكفاءات من المؤرخين والأدباء والشعراء والمتصوفين، وصنفوا مئات الكتب في الحديث والعلوم والطب ونسخوها وأوجدوا مراكز العلم والثقافة في القيروان والمهدية ومن ثم في القاهرة والفسطاط وشدوا القصور التي أصبحت ميداناً لتجمع العلماء والفقهاء، يتنافسون ويتناظرون ويتطرحون في العلوم الدينية واللغة والشعر. أما المساجد فقد كانت بمثابة مراكز للعلماء والقضاة والوزراء يحاضرون الناس في العقائد والفقه، كما دأب الفاطميون على إقامة المكتبات التي كانت تحوي المصنفات من كتب اللغة والحديث والتاريخ والسير والفلك والكيمياء والطب، وكانت تنفرد باقتناء كتب لم يكن لها وجود في مكتبات قرطبة أو دمشق.

أما العلوم التي عنى بها الفاطميون واشتغلوا فيها، فهي جميع العلوم الإسلامية أو الدينية التي أطلقوا عليها العلوم النقلية أو الشرعية مثل علم التفسير والقراءات والحديث والفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة العربية مثل النحو واللغة والبيان والأدب وكذلك تناولوا العلوم العقلية والحكمة التي كانوا يطلقون عليها علوم الأوائل أو العلوم الدخيلة وتشمل الفلسفة والهندسة وعلم النجوم وعلم الفلك والموسيقى والرياضيات والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا.

ومن أبرز الفلاسفة في العهد الفاطمي في بلاد المغرب هو عبد الرحمن أبو حاتم الرازي الورسناتي، وقد تأثر إلى حد كبير بمدارس الدعوة التي أسسها عبيد الله المهدي في بلاد المغرب، وكانت لأبي حاتم نظريات في المبادئ التي كان يؤمن

بها الفاطميون، كما أسهم في نشر الثقافة الإسلامية فتكلم في الفلسفة واللغة والتفسير والفقه ومن مؤلفاته كتاب " الزينة " تناول فيه الأمور الفقهية وفلسفة ما وراء الطبيعة وفيه معلومات عن الفرق الدينية وعن الجغرافية، وكتاب " أعلام النبوة " وهو من أهم الكتب الفلسفية، وقد توفي أبو حاتم الرازي سنة 822 هـ⁽¹⁾ ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من البواعث السياسية والعسكرية لبناء الفاطميين مدينة المهدية فإن دورها لم يقتصر على ذلك بل حرص الفاطميون أن تكون عاصمتهم الجديدة مركزاً من مراكز العلم ومجمعاً لعلمائهم وفقهائهم كما تميزت بالقصور والمنشآت والمساجد التي كان يتردد عليها طلبة العلم لأخذ الفقه وإتقان القرآن.

ولا شك في أن نشر مبادئ الفاطميين في بلاد المغرب بعد قيام دولتهم هناك استخدم تبصير المغاربة بفقهه وآرائه وعقائده فاتخذوا التفسير والتأويل وسيلة لهذا الغرض واعتماد الاستدلال العقلي في تفسير النصوص الدينية، كما أغدق الفاطميون الأموال على الشعراء الذين اتصلوا ببلاطهم فنجد المغالاة في شعرهم للإشادة بمجد الفاطميين وربما كان الفاطميون يفعلون ذلك لغرض استقطاب القبائل المغربية التي وقفت منهم موقفاً معادياً ولتثبيت دولتهم الفتية التي كانت تحتاج إلى التأييد والتعزيد.

(1) انظر للاستزادة عن دور أبي حاتم الرازي في الحركة العلمية والسياسية في الدولة الفاطمية في بلاد المغرب (د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 467 - 469)

المرابطون / حاضرتهم مراكش

شهر عن المرابطين ومؤسسي دولتهم الأول، أنهم كانوا من المتفقهين والمتبحرين في العلم، فقد عرف عن يحيى بن إبراهيم الجدالي، ميله للعلم والفقه كما كان وجّاج بن زللو اللمطي، فقيهاً من أهل السوس الأقصى أخذ العلم وانقطع للعبادة والعلم وأسس مدرسة للمالكية في بلده في عهد دولة المرابطين وكثر عدد تلاميذه، أما عبد الله بن ياسين الجزولي، فقد هدى المرابطين إلى المتاجرة بالعلم والفقه في الدين، وكان يحث لمثونة وجداله على أخذ العلم وسرعان ما تجمعت حوله طائفة من التلاميذ أخذ يعظمهم القرآن والسنة وأحكام الدين.

وعلى الرغم من جفوة المرابطين وخشونتهم، فإنهم بدأوا يشجعون شعراء الأندلس وأدباءها وأهل العلم إلى الاختلاف إلى بلاد المرابطين في المغرب فيذكر عبد الواحد المراكشي ما يشير إلى اهتمام المرابطين بأهل العلم والكتاب وفرسان البلاغة، وهو يشبه بلاط المرابطين مجالس بني العباسي في بغداد في تشجيع العلماء والفقهاء والشعراء بقوله: "فأنقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار" ⁽¹⁾ وكان ممن اختلف من البلغاء والأدباء واللغويين أبو بكر المعروف بابن القصيرة، وهو كاتب المعتمد بن عباد الذي أسقطت إمارته بعد دخول المرابطين الأندلس والوزير عبد المجيد بن عبدون وأبو القاسم بن الجند المعروف بالأحدب وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرية وأبو عبد الله ابن أبي الحضال الذي كان يعدّ من أنبيهم وأكبرهم مكانة لديه، وهو أحدج

(1) تلخيص أخبار المغرب ص 163 - 164

من انتهى إليه علم الأدب وأخوه أبو مروان⁽¹⁾ وهكذا تبدل بلاط يوسف بن تاشفين من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متألق متحضر⁽²⁾.

أما الحركة الفكرية المرابطية في الأندلس، فلدينا معلومات مفيدة عنها، فقد احتفظت بكثير من مظاهرها العلمية والأدبية، وهي استمرار لما كان عليه الأمر خلال عهد الطوائف. وقد بذلت دولة المرابطين رعايتها لطائفة كبيرة من العلماء والأدباء الأندلسيين واستخدم بلاط مراكش والأمراء والحكام بالأندلس كثيراً منهم في مناصب الوزارة والكتابة، أسوة بما كان في عصر الطوائف، ولعل في مقدمة من ظهر من الكتاب والأدباء في العهد المرابطي في الأندلس عبد الرحمن بن محمد أسباط المتوفى 487 هـ وخلفه في منصب الكتابة أعظم كتاب الأندلس هو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي الذي كان من كتاب الدولة في عهد يوسف بن تاشفين كما ضم البلاط المرابطي عدة من أعلام الكتاب وأئمة البلاغة منهم أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسي كما لمع اسم الكاتب، الفتح بن خاقان الذي اشتهر بأسلوبه البليغ المسجع ومن كتبه "قلاند العقبان" و"مطمح الأنفس" ويحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري المعروف بابن الصيرفي وهو من أعلام العصر المرابطي في البلاغة والأدب والتاريخ ومن كتبه في تاريخ الأندلس "الأنوار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية" وكتاب "قصص الأنبياء وسياسة الرؤساء"

ويعقد الدكتور محمد مجيد السيد، فصلاً مهماً عن "الحياة الفكرية في دولة المرابطين بالأندلس، فيقول: إن عهد المرابطين كان فترة نيرة متحضرة لا تقل تقدماً وازدهاراً عن فترة الخلافة والطوائف⁽³⁾ وعلى الرغم من تعصب المرابطين الديني، لم يعارضوا النشاط الأدبي والثقافي أن لم يشجعوه وإن اغلب حكام المرابطين كانوا يستدعون أشخاصاً معينين للاستفادة من علومهم مغدقين عليهم

(1) عبد الواحد المراكشي، م. ن ص 173.

(2) د. السيد عبد العزيز سالم، م. ن ص 748 نقلاً عن ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس ص 247.

(3) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص 80.

العطايا والنعم فقد استدعى على بن يوسف بن تاشفين، الفيلسوف المتزهّد، مالك بن وهيب من اشبيلية إلى حضرة مراکش وصيّره جليسه وأنيسه ⁽¹⁾. كما اهتم المرابطون بالكتاب والبلغاء الأندلسيين للإعراب عن رغباتهم ومخاطباتهم مشجعين إياهم على الكتابة والتأليف، وكان لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين، دور كبير في تشجيع الكتاب والشعراء ⁽²⁾ وهكذا يمكننا القول أن الحركة العلمية والأدبية في عهد المرابطين سواء في المغرب الإسلامي أو الأندلس قد حافظت على تقدمها وازدهارها حتى بعد سقوط دولة المرابطين.

⁽¹⁾ م. ب ص 160

⁽²⁾ م. ن. ص 61 " يذكر الفتح بن خافان في صدر كتاب " قلائد العقبان " إنه أقدم على تأليف كتابه هذا مدفوعا بتشجيع من إبراهيم بن يوسف، كما يذكر ابن خفاجة في مقدمة ديوانه " إنه انصرف منذ زمن بعيد عن نظم الشعر لولا الأمير إبراهيم وحثه على قوله ومعاناته "

الموحدون / حاضرتهم مراکش / واشبيلية

كانت دولة الموحدين، دولة حامية للعلوم والآداب والفنون، حيث كان مؤسسها محمد بن تومرت من أقطاب علماء عصره، فقد أفسخ في دعوته للعلم وحضاً على تحصيله بقوة وحماسة فقال: " العلم أعز ما يطلب وأفضل ما يكتب وأنفس ما يدخر وأحسن ما يعمل ، وهو الذي جعله الله سبب الهداية الى كل خير وهو أعز المطالب وأفضل المكاسب وأنفس الذخائر وأحسن الأعمال " (1) كما كان عبد المؤمن بن علي من ألمع علماء عصره ، التف حوله العلماء والكتاب والشعراء فبسط عليهم رعايته وغمرهم بصلاته. وكذلك كان يوسف بن عبد المؤمن بن علي من أكابر علماء عصره، وكان أديباً متمكناً وفقيهاً ومحدثاً بارعاً شغف بالدراسات الفلسفية وقد جمع حوله طائفة من أعظم علماء العصر ومفريه وفي مقدمتهم أبو الوليد ابن رشد وأبو بكر ابن طفيل وأبو بكر بن عبد الملك بن زهر وهم من أساتذة الفلسفة والطب في هذا العصر، وكان ولده المنصور عالماً مستنيراً متمكناً من الحديث الشريف والفقيه واللغة، وكان بلاطه يضم العلماء والأدباء والشعراء والأطباء والمهندسين والكتاب والمؤرخين فيجزل لهم الصلات ويجري لهم المرتبات العالية المنتظمة (2).

وعلى الرغم من تردي الأوضاع السياسية لدولة الموحدين في أواخر أيامها، فإننا نجد أمراءها لا يبتعدون عن أهل العلم والأدب والثقافة حتى لقد أصبحت النزعة العلمية هي الغالبة في البلاط الموحيدي سواء في مراکش أو في اشبيلية، فقد جرى خلفاء الموحدين على سياسة إطلاق حرية البحث والتفكير والرأي باندفاع كبير إذا ما قورن بما كانت عليه دولة المرابطين.

(1) محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ص 645

(2) المصدر نفسه ص 646

ويمكن أن نستفيد من الفصل الذي عقده الأستاذ محمد عبد الله عنان عن الحركة الفكرية والعلمية خلال عصر الموحدين، حيث يورد لنا أسماء جمهرة من العلماء والفقهاء والمفكرين والشعراء و الأدباء، ممن كانوا يختلفون إلى بلاط الموحدين أو كانوا يعيشون في كنفهم وممن تلقوا منهم الرعاية والصلوات سواء من أهل المغرب أو من الأندلسيين، ويمكن أن نلاحظ تأثيراتهم العلمية والثقافية في المغرب أو الأندلس حيث كانت تستهوي علماء المغاربة الحياة في مدن الأندلس أو أن علماء الأندلس كانوا يختلفون إلى مجالس الموحدين في مراكش⁽¹⁾.

كما اتخذ الموحدين مجالس العلم، يحضرها الأمراء والعلماء، وكان لها نظام خاص، إذ يتصدر الأمير المجلس ثم خطيب الجماعة ثم قاضي الجماعة بمراكش، فرئيس الأطباء فأكبر علماء الحضرة فباقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم، ثم تبدأ المناقشة والمناظرة حول مسألة علمية يلقبها الأمير أو أحد العلماء وتناقش ثم تختتم الجلسة.

(1) للاستزادة والإطلاع انظر: محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين ج 2 ص 649 - 680

بنو مرين / حاضرتهم مراکش أو فاس

لا شك في ان عهد بنى مرين يعد استمراراً لما كان عليه عهد الموحدين وبخاصة في الجوانب الحضارية والأحوال الفكرية والثقافية والعلمية منذ ظهر عدد من العلماء والمنكرين في مدينة فاس وفي مراکش أو في المدن والمراكز الأخرى التي أتيح لهم ان يبسطوا سيطرتهم ونفوذهم عليها ومعروف ان بعض من تولى أمر الدولة المرينية كان من الفقهاء المتبحرين في العلم، فقد عرف عن أبى يوسف يعقوب انه كان من متقني العلوم الدينية وعارفاً بالحديث (1).

ومن الفقهاء والذين نسمع عنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق الذى ولاه الأمير أبو الحسن المريني أعمالاً سلطانية عدة (2) وأرسله في سفارات لتمييزه في العلم والمعرفة، وأبو القاسم محمد بن جزى الذى كان أحد شيوخ الوزير لسان الدين بن الخطيب كما كان "فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس مشاركاً في علوم عدة عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، مستوعباً للأقوال، جماعة للكتب حسن المجلس، ممتع المحاضرة " (3).

(1) ابن أبى زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ص 59.

(2) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج5 ص 413.

(3) المصدر نفسه ص 414.

الفصل الثالث عشر

النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية

- 1- بنو مدرار: الإمارة المدرارية.
- 2- بنو رستم: الإمارة الرستمية.
- 3- الأدارسة: إمارة الادارسة.
- 4- الأغالبة: إمارة الأغالبة.
- 5- الدولة الفاطمية.
- 6- دولة المرابطين.
- 7- دولة الموحدين.
- 8- إمارة بنى مرين.

النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية

(1) بنو مدرار / الإمارة المدرارية:

قامت إماراتهم على مبدأ الخوارج الذى يبيح لكل فرد فى الدولة الإسلامية ان يحكم إذا توفرت فيه شروط وصفوها طبقاً لمبدئهم، ولكنهم أخذوا بنظام الوراثة فى الحكم بعد قيام إمارتهم وقد اتخذ حكم بنى مدرار الاستقلال عن النفوذ العباسى فى بداية عهدهم ولكنهم دخلوا فى تبعية الخلافة حتى وصفهم احد المؤرخين بانهم مجرد أعمال للعباسيين⁽¹⁾.

حكم الإمارة ستة عشر أميراً تراوحت سلطتهم بين القوة والضعف وفى عهد الأمراء الأواخر ضعفت السلطة السياسية فى الإمارة نتيجة للصراع بين أسرة بنى مدرار وتدبير المؤامرات بعضهم للآخر، وربما كان ذلك بسبب الانحياز الى مبدأ أهل السنة والتخلي عن مبادئ الخوارج التقليدية.

ومن الجدير بالذكر ان إمارة المدرارين، تشكل فى أساسها تجميعاً للخوارج فى مناطق المغرب الأقصى يغلب عليه الطابع الدينى المذهبى لذلك أصبحت مدينة سجلماسة بوتقة لتجمع عناصر مختلفة من قبائل المغرب وخاصة بطون قبائل مكناسة وصنهاجة اللثام من مسوفة ولمتونة وزويلة وكذلك جماعات من بلاد السودان وبعض الاندلسيين واليهود، وقد ساهم هؤلاء جميعاً فى عمران المدينة وازدهارها وظهورها كمركز اجتماعى، ولا ريب فى ان هجرة القبائل الى سجلماسة واختلاطها بجماعات السودان والاندلسيين المتحضرين نسبياً ترك أثراً فى أحوالها واستقرارها وأحدث تغيرات ملموسة فى عاداتها وتقاليدها وأساليب حياتها فترك معظمها حرفة الرعى واتجه نحو الزراعة والصناعة والتجارة ويبدو ان هذا النشاط خلق حافزاً للتطورات الاجتماعية وأوجد موازين جديدة للقوى الاجتماعية داخل المدينة مما أدى الى اتساعها وازدياد عمرانها شيئاً فشيئاً ويظهر

(1) د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 94.

بصورة خاصة ان استقرار الصفات الاجتماعية التي نزلت إليها من المشرق وخصوصاً من بغداد ودمشق ومصر نقل الى سكان المدينة طباع سكان المدن الكبرى المزدهرة وحققهم على ممارسة حياة الترف والرفاهية ويشير ابن الخطيب الى ان أمير سجلماسة اليعقوب بن أبي القاسم 508/174هـ "بنى سور المدينة وقسم داخل السور على القبائل " (1) فازدهرت المدينة وأصبحت حاضرة لبنى مدرار (2) وأحسن ابن حوقل بمنزلة أهل سجلماسة ورفاهيتهم بقوله "سجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل مع علم وسر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة " (3) أما البكري فيتحدث عن غنى أهلها وكثرة أموالهم (4) ويصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري قائلاً: "سجلماسة قصبة جليلة وأهلها قوم جياذ بها علماء وعقلاء " (5).

ولما كانت مدينة سجلماسة مدينة تجارية فلا بد ان يظهر فيها النفوذ الاجتماعي للفئات التي تدير النشاط التجاري لذلك تبدو مظاهر الترف والثراء واضحة وبخاصة في عهد بنى مدرار حيث بلغت أوج تقدمها الاجتماعي متمثلاً في مبانيها وفننها المعماري وتقدمها العلمي وتتركز في سجلماسة كما في غيرها من مراكز الحضارة في العالم الاسلامي خلال هذه الفترة مظاهر الحضارة.

(1) أعمال الأعلام ص 143 .

(2) اليعقوبي، كتاب البلدان ص 359.

(3) صورة الأرض ص 90.

(4) المغرب ص 148.

(5) احسن التقاسيم ص 65.

ومعالم الترف الاجتماعي⁽¹⁾ مثل الحمامات والقصور والمنشآت ودور العلم⁽²⁾ وكذلك بروز العلاقات الاجتماعية الجديدة داخل الأسرة أو بين العناصر والفئات التى كان يمثلها التجار والمسافرون المسلمون الذين وفدوا إليها من المدن الإسلامية الشهيرة فى المشرق الإسلامى مثل البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والسكان الأصليين على اختلاف قبائلهم ونحلهم أو بينهم وبين الأقليات من الأديان وخاصة اليهود الذين سيطروا على الحياة الاقتصادية بسبب استحواذهم على تجارة الذهب⁽³⁾.

غير أن أغلب القبائل المنضوية داخل حدود إمارة المدرايين جذبهم الاهتمام بالأنشطة الاقتصادية وبخاصة الزراعة حيث تقوم على المياه التى يوفرها نهر ملوية الذى تقع على منحنياته مدينة سجنماسة حيث يحول هذا النهر المناطق التى تحيط بالمدينة الى سهول فيضائية صالحة للآببات الزراعى فكانوا يكثر من الأراضى الزراعية وتوسع رقعتها بحفر الخجان وشق القنوات مما يساعد على الاستكثار من الفروس وخاصة النخيل⁽⁴⁾ كما احتفروا الأحواض واختزنوا فيها

(1) وذلك بالقياس الى حياة القبائل الرحل فى البوادي الصحراوية وبراري سجنماسة واودغست ونواحي لمطة وفران، ففيها مياه عليها قبائل مهملين لا يعرفون الطعام ولا نرد الحفظة ولا الشعر ولا شيئا من الحبوب والغالب عليهم السقاء والاتشاح بالكساء وقوام حياتهم باللبن واللحم فيذكر الحميرى ان السجنماسيين واغلبهم من القبائل التى هاجرت الى المدينة اكتسبوا كثيرا من المهارات فى الآداب العامة ومنها مهارة الطبخ تعلموها من السودانيات المهارات فى عمل الأطعمة ولاسيما أصناف الحلويات مثل الجوزنيات واللوزنيات والقاهرات والكنافات والقنائف والمشبهيات (الروض المعطار فى خبر الأقطار ص 64).

(2) ابن حوقل، المصدر السابق ص 84.

(3) يشير صاحب الكتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار الى ان سكان سجنماسة نعموا على اليهود بسبب سيطرتهم على الاقتصاد واستعدوا عليهم داعية الفاطميين أبى عبد الله للانتقام منهم حيث أمر هذا الأخير بقتل أغنيائهم واخذ أموالهم وفرض عليهم امتهان احدى حرفتي: الكنافة أو البناء وكانت هاتان الحرفتان من الحرف الرذيلة لكنهم ما لبثوا ان عادوا الى مزاوله دورهم فى الحياة الاقتصادية (مجهول ص 202).

(4) ابن الخطيب، المصدر السابق ص 139.

المياه لري مزارعهم ولشربهم وأغراضهم الأخرى⁽¹⁾ وبذلك أصبحت منطقة سجلماسة عبارة عن واحة مغمورة بالبساتين والغروس ومقسمة الى أحواض تملؤها مياه وادى نهر ملوية بفرعيه الشرقى والغربى.

ويلقى ابن حوقل ضوءاً مفيداً على طبيعة النشاط الزراعى والمواسم الزراعية فى المناطق التى تدخل تحت نفوذ المدرارين ويقارنها مع الزراعة فى مصر التى كانت تتم بالارواء من ضفتي نهر النيل فيشبه نهر ملوية بنهر النيل لما يزيد فى الصيف فيتم الزرع حسب زرع مصر وكانوا يزرعون سنة ويتركون الأرض فى السنة التالية كما ان بعض الأراضى تغدق بالمياه فيتم استصلاحها فتزرع لمدة سبع سنين متوالية⁽²⁾.

ولعل من أهم منتجاتهم الزراعية، الأعناب والزبيب الظلى⁽³⁾ والتمور التى كانت على أنواع حيث بلغت ستة عشر صنفاً يذكر ياقوت منها: "العجوة والدقل ويقول أن أكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر"⁽⁴⁾. كما ان لهم رطباً أخضراً مثل السلق فى غاية الحلاوة⁽⁵⁾ كما زرعوا القمح والشعير وعرفت لديهم أنواع من الحبوب ليست قمحاً ولا شعيراً صلب المكسر لذيق المطعم وخلقه بين القمح والشعير⁽⁶⁾ ويسمى البكرى هذا النوع من الحبوب (الصينى)⁽⁷⁾ والى جانب غرس الأشجار وزراعة الحبوب ظهر اهتمامهم بزراعة القطن والكمون والكروياء والحناء⁽⁸⁾ وأنواع من الخضر والثمار والرمان وجميع الفواكه والمحاصيل بحسب فصول

(1) البكرى، المغرب ص 148 ثم انظر كتاب الإستبصار ص 201 يقول: "ولهم مزارع كثيرة يسفونها من النهر فى حياض كحياض البساتين".

(2) صورة الأرض ص 90.

(3) البكرى، م. ن. ص 148.

(4) معجم البلدان ج 3 ص 162.

(5) ابن حوقل، المصدر السابق ص 90.

(6) م. ن. ص 90.

(7) المغرب ص 151.

(8) الأدريسى، صفة المغرب وارض السودان (قطعة من كتاب نزهة المشتاق) ص 98.

السنة كما اعتنوا بتربية الماشية والأغنام والأبقار فكانوا "يبيحون البلاد للمراعى والزرع والمياه لورود الإبل والماشية " (1).

أما فى مجال الصناعة فإن بعض من السكان لا يعدمون الاشتغال ببعض الصناعات اليدوية، مثل صناعة النسيج التى كانت تعتمد على القطن الذى ينتج محلياً وعلى الصوف الذى يصفه البكرى بأنه من أجود الأصناف ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ الثوب منها بأكثر من عشرين مثقالاً (2) لذلك اشتهر اللباس السلجماسى فى بلدان المغرب والمشرق والأندلس (3) ويفيدنا ياقوت بما ذكره عن مهارة النساء السلجماسيات فى صناعة النسيج وتفوقهن فى صناعة الأرز فقال: (ان لنسائهم يد صناع فى غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الارز تفوق الأرز القصيبة التى بمصر يبلغ ثمن الارز خمسة وثلاثون ديناراً وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذى بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ " (4).

وهناك حرف تتعلق بالبناء مثل الحدادة والنجارة وصناعة السكر وتكرير الملح (5) وصناعة الأحذية (6) الى جانب صناعة الأواني الخشبية من شجر يعرف (تامجائت) وهو اسم المنطقة التى كان يؤخذ منها وصناعة المصوغات الذهبية والفضية والحلي يقوم بها صاغة مهرة فى مدينة سجلماسة اغلبهم من أهل

(1) ابن حوقل، م. ن. ص 100

(2) المغرب ص 147.

(3) وهذا اللباس يشبه اللباس الدرجيني فى ثوبه ولونه ولكنه يفوقه جودة (انظر د. الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامى ص 174).

(4) معجم البلدان ص 192.

(5) القلتمشندى يصبح الأعشى فى صناعة الاشيا ج 5 ص 164.

(6) الشماض، السير ص 248.

* يصفه البكرى (شجر يعظم ورقة هذب كورق الطرفاء ويصنع منه آنية سجلماسة ودرعه) ص 156.

الذمة⁽⁷⁾، وكانت معادن الذهب والفضة تستخرج من المناجم والمحاجر فى منطقة درعة⁽¹⁾ أو من الذهب المستورد من بلاد السودان⁽²⁾ كما يوجد معدن الفضة بجبل مجاور لمدينة سجدماسة، ويؤكد البكرى أنها بلاد مشهورة بالذهب⁽³⁾ كما يؤكد الأصطخرى أنها بلاد قريبة من معدن الذهب بينها وبين ارض السودان وارض زويلة ويقال انه لا يعرف بلدا للذهب أوسع ذهباً ولا أصفى منه⁽⁴⁾.

وفى التجارة تحتل امارة بنى مدرار مكانة مرموقة بين إمارات ودول المنطقة بسبب نشاطها الذى كان يتركز فى مدينة سجدماسة التى اصبحت على حد قول الدكتور الحبيب الجنحاني مركزاً تجارياً عالمياً فى تلك الفترة، ويعزى ذلك الى تجمع الثروة فيها ولاسيما الذهب الذى أتاح لهم مزاولة التجارة على نطاق واسع فأصبح أهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالاً⁽⁵⁾. وكان الاتجار بالذهب يحتل المنزلة الأولى بين تجارات المدراريين ويفهم مما جاء عند البكرى⁽⁶⁾ وياقوت⁽⁷⁾ ان حصول السجدماسيين على الذهب تبدو أهميته دون البضائع والتجارات الأخرى حتى أصبح هذا المعدن عند سكان المدينة "جزاف عدد بلا وزن".

ولا غرو، فان النشاط التجاري يتمثل بجميع البضائع التى كانت تحملها القوافل التجارية سواء المتجهة الى سجدماسة أو المنطقة فهى ولعل أهم السلع التى كانت تصدرها هذه المدينة الى بلاد السودان وغانة والتكرور ومدينة واودغست هى

(7) (واغلبهم من اليهود أو الاندلسيين والفرس والمشاركة) د. الحبيب الجنحاني ، المصدر السابق ص 175 .

(1) ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان ص 80.

(2) د. الحبيب الجنحاني، المصدر السابق ص 175.

(3) المغرب، المصدر السابق ص 151.

(4) مالك الممالك ص 34.

(5) المغرب الإسلامى ص 176.

(6) المغرب ص 157.

(7) معجم البلدان ص 151.

القمح والتمور والزبيب والثمار المجففة والمنسوجات القطنية والصوفية والنحاس المصنع والاحجار الكريمة والخرز والملح والحناء والماشية⁽¹⁾. أما وارداتها من اودغست فهي أشجار الصمغ ومن السودان الذهب والرقيق⁽²⁾ وفى نطاق التجارة الخارجية فيستورد التجار السجلماسيون الفستق من مدينة قنصه ويحملون السكر والكمون والكرابوية والأحذية الى القيروان⁽³⁾.

وتبادل تجار بنى مدرار مع بلاد الأندلس، السلع والمتاجر، فكان المدراريون يصدرون القمح والسكر والكروم والتمور فى مقابل الثياب والمطرزات القطنية والكتانية والحريرية التى اشتهرت بها قرطبة⁽⁴⁾، ونتيجة لتطور صناعة النسيج القطنى فى سجلماسة فقد استوردت القطن الاشبلى الخام الشهير فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، فيشير الحميرى الى ما يفيد بجودة القطن فى اشبيلية وتجهيزه إلى سجلماسة⁽⁵⁾ كما انه نتيجة لهذا التبادل التجارى، ان توطدت العلاقات بين الطرفين وقدمت التسهيلات للتجار الاندلسيين المدرارين فى جلب السلع التى كان يروى لهم المتاجرة فيها .

ويبدو أن اماره بنى مدرار عقدت أوثق الصلات ببلاد التكرور وغانة التى كانت تعرف ببلاد السودان الغربى واحتلت العلاقات التجارية مكانة متميزة وأصبحت سجلماسة مركز الاتصال بين بلاد المغرب الإسلامى وبين بلاد السودان حيث تتجمع القوافل فى مدينة درعة عند خروجها من إمارة بنى مدرار، وعرفت " أبو الأتى " بأنها أولى المراكز السودانية التى كانت تنزلها هذه القوافل⁽⁶⁾.

(1) البكرى، المصدر نفسه ص 158-159، الأدريسى، نزهة المشتاق ص 60.

(2) البكرى، المصدر نفسه ص 159.

(3) د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 208.

(4) د. محمود اسماعيل، الم صدر السابق ص 209.

(5) الروض المعطار ص 59.

(6) د. محمود اسماعيل، م. ن. ص 210.

ويسلك التجار القادمون الى الإمارة المدراية أو الخارجون منها مع قوافلهم طرقاً برية وبحرية ولعل أهمها طريق تربط سجلماسة بمدينة وجدة، تبدأ من هذه الأخيرة الى مدينة صاغ ومنها الى تافليت ثم الى جبل بنى يرنبيان وقيرو ومنه الى مدينة الاحساء ثم الى مسلي منتهاً بسجلماسة⁽¹⁾، وكانت هذه الطريق تتصل بطريق أخرى فى موضع معين من المشرق الإسلامى مبتدئة من بغداد والبصرة مارة بالانبار وهيث والرقّة وحران والرها وتل موزن وحلب ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والإسكندرية ومنها برقة ثم الى طرابلس ثم تصل الى تاهرت عاصمة الرستميين ومنها الى سجلماسة والطريق الثانية التى تربط إمارة المدرايين مع الإمارة الرستمية مبتدئة من سجلماسة ومنتهاية بورجلان⁽²⁾ والثالثة بإمارة الادارسة من مدينة فاس الى سجلماسة أما الطرق البحرية فهى التى تنتهى عند موانئ المدرايين على ساحل الأطلنطى مبتدئة من موانئ الأندلس مثل اشبيلية وشاطبة . وكان ميناء بحريت من الموانئ الشهيرة التى دأبت على تصدير البضاعة الى سجلماسة وتابحرت مدينة مسورة على ساحل البحر وهى محط للسفن ومقصد لقوافل سجلماسة⁽³⁾ .

وتحدثت المصادر عن العملة السجلماسية وأهميتها فى محيط التداول حيث اقتنى أمراء الأندلس منها كثيراً واتخذوها وسيلة للتبادل وربما كان ذلك بسبب محافظتها على قيمتها النقدية أو لأنها ضربت من الذهب الإبريز الذى كان يفضلنه الاندلسيون لذلك أصبحت حركة التبادل التجارى فى إمارة بنى مدرار تتم بمقايضة الذهب وبخاصة فى عهد الأمير الشاكر لله⁽⁴⁾ حيث ضرب السكة باسمه ولقبه وكانت تسمى "الدراهم الشاكرية"⁽⁵⁾ وهى عملة طيبة للغاية⁽⁶⁾ وإن العملة التى ضربها

(1) البكرى، المصدر السابق ص 80.

(2) البكرى، المصدر السابق ص 77.

(3) م. ن. ص 87.

(4) ابن خلدون، العبر ج 6 ص 131 السلاوى. الاستقصا ج 1 ص 113.

(5) م. ن. ص 270.

(6) السلاوى، م. ن ص 119 توجد هناك صورة لدينا ضرب فى عهد الشاكر بالله : الكتاب دائرية الوجه الأول : بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ستون وثلاثين وثلاثمائة (363) - محمد رسول الله - الإمام الشاكر لله أما الوجه الآخر فغير واضح ونصعب قراءته وهناك شكوك تحوم حوله ونجد ديناراً آخر ضرب سنة 345 هـ الوجه الأول : عبد الله - لا اله الا الله وحده لا شريك له والوجه الآخر - محمد رسول الله - الإمام - الشاكر لله بسم الله ضرب هذا الدينار سنة خمس وأربعين وثلاثمائة (انظر د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 304) .

سنة 336هـ كان لها وزنها 19 غم وقطرها 39 ملم والتي ضربها سنة 340 هـ وزنها 21 غم وقطرها 40.10 ملم⁽¹⁾ .

(2) بنو رستم / الإمارة الرستمية:

إمارة مستقلة استقلالاً تاماً عن سطوة العباسيين ونفوذهم وكان ينبغي ان تكون "الإمامة" (السلطة) فيها متداولة تطبيقاً لمبادئ الخوارج فى موضوع الخلافة الإسلامية ولكنهم انتهجوا النظام الوراثى فى الحكم وأوجدوا ما أطلقوا عليه "مجلس الشورى" أو "مجلس المستشارين" ويكون الإمام مسئول أمامه عن تنفيذ ما ينص عليه مبدأ الشورى الذى اتخذه الخوارج الإباضيون وكان هذا المجلس يتألف من (الشرأة) الخوارج وشيوخ المذهب وزعماء القبائل ووجوهها ويتكون من سبعة من رجال الإمارة وصفوا بانهم أصحاب الصلاح والزهد والعلم وكانت سياسة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الإمارة تقوم على إرساء نظمها وإدارتها وذلك بإيجاد القوانين والرسوم التى تحكم مسيرتها كما التزم بسياسة المهانة مع القوى الخارجية ووضع هدفاً لتحقيق المصاهرات السياسية مخالف بنى مدرار وهم إخوانه فى المذهب بمصاهرة احد أمرائها وهو اليسع بن أبى القاسم.

والظاهر ان سياسات الأمراء الأوائل قد أثمرت فى تقوية الإمارة وجعلتها تتقدم فى خطوات ملموسة فأصبحت مثابة لأهل المغرب والمشرق واستحدثت القوانين التى تنظم الاحوال الاقتصادية والعلمية والفنية والاجتماعية فى الإمارة وذلك لجميع السكان والطوائف الإسلامية التى هاجرت واستوطنت فيها.

لقد تمخض قيام امارة الرستميين وتأسيس مدينة تاهرت حاضرة لها عن تحولات اجتماعية ملموسة فى حياة السكان وبخاصة منطقة المغرب الأوسط فقد ترتب عليه الانتقال من حياة البداوة والترحال والرعي الى حياة الحضارة والاستقرار حيث ظهرت المعالم الحضارية المتمثلة بمخلفاتهم المادية مثل دور الإمارة والقصور والمباني والضياع والمنشآت العامة مثل الفنادق والحمامات

⁽¹⁾ Lavoix, M. H. Catalogue des monnaies Musul-Mane de la Bibliothèque Nationale "Lspagne et Atrique" Paris-1891, P 402.

والمساجد ومراكز العبادة والتصوف فكان عهد افلح بن عبد الوهاب من العهود الزاهرة الذى "شمخ فى ملكه وابتنى القصور واتخذ لها أبواباً من الحديد وتنافس القاس فى البناء حتى ابتنى الناس القصور والضيايع واجروا الأنهار إليها" (1) وكان الرستميون قد تأثروا ببناء منشآتهم وقصورهم بالتقاليد المعمارية العراقية والسورية فقد كان نظام البناء فيها أشبه بالقصور التى شيدها الخلفاء الأمويون فى بلاد الشام (2).

إن القبائل التى ناصرت الرستميين وبخاصة لماية ولواته وهواره وزواغه ومطماطة وزناته ومكناسه قد استقرت فى مدينة تاهرت وضواحيها أما قبائل مزاته وسدداته فكانت تنتجع من مواطنها فى مواسم معينة باتجاه المدينة لإصابة الماء والكأ كما فضلت قبيلة نفوسه البقاء فى المنطقة الجبلية قرب طرابلس وعلى أية حال فإن ما ينتقل من جميع هذه القبائل المنتجعة الى تاهرت يصبح جزءاً من سكانها ويتحول الى الحياة الحضرية.

وبمرور الزمن ظهر فى مدينة تاهرت خليط سكاني غير متجانس وتعقيدات فى طبيعة العلاقات بين سكان المدينة المتحضرين بمظاهر الترف والبذخ وبين القبائل الطاعنة أمام ابوابها حيث احتفظت بطبيعتها القبلية (3). وتاهرت مثل غيرها من المدن الإسلامية المعاصرة لها برزت فيها طبقة جديدة من السكان حازت على الثراء والعقارات (4) وعلى النفوذ والامتيازات فى الإمارة والحكومة (5) إن هذه الطبقة الاجتماعية كانت تسمى لضمان مصالحها وديمومتها وكان عليها أن تتطلع الى السلطة وتنتزع لها صلاحيات داخلها وتعمل على تكريس نفوذها

(1) ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين ص 26، النفوس، الأزهار الرياضية ص 42.

(2) لم يتبق من هذه المنشآت شئ يذكر حيث تخرجت عمائرهما وأصبحت أطلالا وإن الاستنتاجات تقوم على المصادر التاريخية بهذا الخصوص.

(3) د. الحبيب الجنتاني، المغرب الإسلامى ص 113.

(4) يمكن أن نطلق على هذه الطبقة "الأرستقراطية" كما هو الحال بالنسبة للمدن الإسلامية الأخرى فى حقبة العصور الوسطى.

(5) ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين ص 26-31.

وكان لهذا أثره الواضح فى نشوب الثورات والانتفاضات وحدثت دوامة من الفوضى السياسية ومزيد من الصراع المصحوب بالمؤامرات داخل سلطة الإمارة.

وكان الانصراف الى الحياة الاقتصادية قد ترتب عليه قيام حركة التطور الاجتماعى فادى الى حياة مترفة وباذخة وتحولت مدن غدامس وورجلان وودان وزويلة من مجرد قرى صغيرة مغمورة على حافة الصحراء الى منافذ وثغور داخلية أهلة بالحركة والنشاط كما غدت مراكز حضارية تزدهر بالعلم والثقافة والسياسة والفن⁽¹⁾.

ولدينا بعض المعلومات عن التحولات الاجتماعية التى أصابت الرستميين فى مضمار الحضارة وعن تشبههم بالمشاركة فى امتلاك القصور والضياع والمنازل والحصون واقتناء الجواري والغلمان والعبيد والحشم والانصراف الى حياة الترف والولع بالفنون والآداب وإقامة الأسطة والمآكل للاطعام فى أيام الأعياد ونصب الاحتفالات والمهرجانات التى كانت تحضرها الوفود من العامة والأجناس أو من الخاصة والأمراء ورجال الجيش والبلاط أو من وفود الدول والإمارات الأخرى وسفاراتهم⁽²⁾.

ومن التطورات التى شهدتها المجتمع الرستمي ظهور المرأة على مسرح الأحداث السياسية والاجتماعية فقد كان لبعضهن دور فى الحركة والدعوة الاباضية⁽³⁾ كما أسهم بعضهن الآخر فى الحياة الفكرية والثقافية حيث كن يحضرن الدروس والمناظرات التى كانت فى المساجد⁽⁴⁾ ومن النساء اللاتي برزن فى السياسة "غزالة" أم شبيب بن يزيد الشيباني و"غزال" زوجة أبى اليقظان محمد بن

(1) د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 217.

(2) النفوسى، الأزهار الرياضية ص 11، 25، 48، ابن الصغير المالكي أخبار الأئمة الرستميين ص 31، 34، 49، 52.

(3) الشماخي، السير ص 193.

(4) لقد كان فى كل مسجد قسم خاص للنساء يفصله عن قسم الرجال جدار مخرم يستر النساء ولا يحجب عنهن صوت المدرس.

أبى اليقظان التى أرغمت زوجها على تقليد ابنها يوسف ولاية العهد و "دوسر" ابنة يوسف بن محمد بن أبى اليقظان التى كان لها دور معروف فى الأحداث التى أودت بالإمارة الرستمية⁽¹⁾. أما من برزن فى علم الفلك والنجوم فمنهن أخت عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حيث نافست أخيها افلح فى تتبعه واهتمامه بهذا العلم⁽²⁾.

وتقترن التطورات الاجتماعية فى إمارة الرستميين بالتحويلات الاقتصادية التى شهدت ازدهاراً ملحوظاً ولعل أوضح صورة للنشاط الزراعى ما يذكره الأصطخرى بقوله: "ان مدينة تاهرت كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه⁽³⁾" وكذلك ما أشار إليه المقدسى وهو من أهل القرن الرابع الهجرى ومعاصر للرستميين قوله: "ان تاهرت عاصمة الرستميين قد أحرق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت فى البساتين ونبتت حولها الأعين"⁽⁴⁾ ويؤكد معاصره ابن حوقل أن أهل تاهرت "لهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم وأشجار وبساتين وهى إحدى معادن الدواب والماشية والغنم والبغال ويكثر عندهم العسل والسمن⁽⁵⁾" والظاهر أن الاهتمام بالزراعة استمر حتى بعد زوال إمارة بنى رستم فيذكر البكرى فى القرن الخامس الهجرى "إن تاهرت تقع فى سفح جبل على نهر يسمى (مينه) ونهر آخر يجرى على عيون تجتمع يسمى (تاتش) ومنه شرب أهلها وأرضها وفيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسناً وطعماً ومشماً"⁽⁶⁾ أما

(1) انظر للاستزادة: د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 218، محمد على دبوز المغرب الكبير ج 3

ص 109.

(2) الشماخى، السير ص 193.

(3) المالك والممالك ص 34.

(4) احسن التقاسيم ص 228.

(5) صورة الأرض ص 86.

(6) المغرب ص 66-67.

صاحب كتاب الإستبصار فيؤكد المعلومات التي جاءت عند البكري "ان تاهرت فى منطقة بساتين كثيرة فيها جميع الثمار"⁽¹⁾ كما يتحدث عن قلعة هواره بضواحي تاهرت أنها قلعة منيعة فى جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعناب"⁽²⁾.

أما المناطق الزراعية، فاهمها منطقة الجانب الغربى والشمالى من الإمارة وتشتهر بزراعة الحبوب ومنطقة الجانب الشرقى وهى بلاد نفوسة وتمتاز بالكروم والأعناب والتين والحبوب ومنطقة جربة الشهيرة ببساتين الزيتون والنخيل والكروم ومنطقة الجنوب وهى موطن النخيل ومنطقة الواحات ومنطقة وارجلان الكثيرة الزرع والضرع من الحبوب والنخيل ومنطقة بلاد الجريد وهى قسطنطينية ونقطة تنتج التمور والحبوب والحنطة والشعير⁽³⁾ ويستفاد من إشارة النفوسى وهو مؤرخ مطلع نقل معلوماته عن الرستميين من مصادر معتمدة ان الرستميين اختاروا موقع عاصمتهم فى مكان "جيد الهواء كثير المياه خصب الأرض"⁽⁴⁾ والظاهر انهم أفادوا من هذه المياه اذ شقوا القنوات فزرعوا الكتان والسمن وسائر الحبوب وغرسوا الأشجار وأقاموا البساتين⁽⁵⁾.

والى جانب الزراعة فى اماره الرستميين ظهر الاهتمام بالصناعة التى كانت تقوم خبرة الصناع والمهرة وأصحاب الحرف من الأمصار والأقطار الذين استوطنوا تاهرت والمدن الأخرى فبرزت صناعة المنسوجات الصوفية والكتانية والقطنية والحريرية والزراوى المزركشة وصناعة القوارير الزجاجية والوانى الخزفية البراقة والملونة والحلى الذهبية والفضية ووانى النحاس الأحمر والأصفر المنقوش والخشب المحفور والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف والمصنوعات

(1) مجهول ص 176.

(2) م . ن . ص 178-179.

(3) بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية (رسالة ماجستير لم تطبع بعد) الورقة 150 .

(4) الأزهار الرياضية ص 134.

(5) البكري، المصدر السابق ص 68.

الحديدية بأنواعها مثل الأسلحة والأقفال والوانى والتحف المعدنية وصناعة الافاوية والعطور والأدوية المركبة والعقاقير الطبية وأنواع الصبغة ذات الألوان الزاهية⁽¹⁾ وصناعة ضرب النقود والسكة من الذهب المجلوب من بلاد السودان⁽²⁾. وهناك صناعة مرتبطة بالزراعة والماشية مثل صناعة المحاريث والمناجل والفؤوس، كما توجد معاصر الزيتون ومطاحن القمح الموزعة على الأنهار العديدة⁽⁴⁾.

ومن الجدير بالذكر ان وفرة المناجم والمحاجر فى بلاد الرستمين ساعد كثيرا على ظهور معظم الصناعات وارتقائها وتطورها وكثرة المشتغلين فيها من العناصر غير المغربية مثل الاندلسيين والعرب المشاركة واليهود الذين كانوا يقيمون فى تاهرت⁽⁵⁾ وجاء عند الدكتور الجنحاني ان الحفريات التى أجريت فى منطقة تاهرت عثرت على قطع من الخزف والوانى دللت على وجود صناعات يدوية فيها كما ان المدينة عرفت مصانع تنتج الوانى وما تحتاجه حركة البناء ولاسيما القصور والمنازل والمباني من الخزف والمنقوشات الملونة⁽⁶⁾.

أما النشاط التجاري فى اماره الرستمين منذ اخذ دوره فى التحولات الاجتماعية حيث لعب التجار الرستمين دور الوسيط التجاري بين المشرق الإسلامى والمغرب الإسلامى طوال فترة القرن الثالث الهجرى فكانت التجارة تنقل عبر الصحراء من بغداد والبصرة وتسلك الطريق نفسه الذى يؤدى الى تاهرت وسجلماسة عاصمة بنى مدرار كما نقل الرستميون تجارتهم الى بلاد الأندلس حيث وصلوا الى موانئها المهمة مثل شاطبة وندمير ومرسي أفلة⁽⁷⁾ كما استقبلوا التجار الاندلسيين.

(1) أبو زكريا، السيرة وأخبار الامة الورقة 42، 41، 37، الدرجيني . طبقات الاباضية الورقة 47.

(2) ابن الصغير المالكي، أخبار الامة الرستميين ص 12، 13.

(4) د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 205 - 206 .

(5) النفوسي، المصدر السابق ص 9.

(6) د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 205.

(7) بحاز إبراهيم بكير، المصدر السابق الورقة 193-195.

ويمكن القول، ان منافذ الإمارة الرستمية أصبحت محطات لرحيل القوافل من المشرق والمغرب والأندلس على السواء ويبدو ان طائفة من التجار العراقيين كان لهم مساجدهم ومنازلهم وفنادقهم وأسواقهم الخاصة⁽¹⁾ مما يشير الى اهتمام الرستميين بتجارة المشرق وإيلاء التجار المشاركة رعايتهم فكفلوا لهم الحماية والأمان فى طرقهم وبلادهم⁽²⁾.

ومن مظاهر الحركة التجارية ما كان يفد من تجار القيروان الى تاهرت وما كان يخرج من تاهرت الى القيروان من القوافل التجارية تنقل مختلف السلع والمتاجر وذلك نتيجة للتسهيلات التى كان يقدمها الرستميون للتجار وتأمينهم على نقل التجارة وكثيرا ما أثر بعض التجار والحرفيين الأندلسيين والمدراريين والعراقيين وغيرهم الإقامة فى تاهرت والعمل فى أسواقها وحوالياتها.

وكان الرستميون يستوردون كثيرا من السلع والأمتعة من بلاد السودان وأهمها الذهب الخام لاستعماله فى ضرب النقود والعملية أو لاحتيازه حليا وكذلك ريش النعام وجلود الحيوانات والأبنوس كما استوردوا السلع الأندلسية عن طريق الموانئ فى تنس ومستغانم ووهران وكانوا يصدون الثياب القطنية والكتانية والحريرية التى كانت تشتهر بها قرطبة⁽³⁾ كما تصدر الى السودان المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والوانى الزجاجية والخزفية والأصواف والتحف المعدنية والعطور والبخور والافاوية⁽⁴⁾ إضافة الى الملح والنحاس والودع⁽⁵⁾ كما خرجت قوافل الرستميين الى بلاد الأندلس حاملة القمح والعاج والجلود المصنعة التى كانت تحصل عليها خاما من السودان وغانة⁽⁶⁾.

(1) د. محمود اسماعيل، المصدر نفسه ص 209.

(2) بحاز إبراهيم بكير، المصدر نفسه الورقة 175.

(3) ابن الصغير المالكي ص 18.

(4) النفوسى، الأزهار الرياضية ص 137.

(5) الفلقشندى، صبح الأعشى ج 5 ص 164.

(6) د. السيد عبد العزيز سالم ج 2 ص 577.

ويشير الأصطخري الى الطريق التجارية التى كانت تربط كلا من تاهرت وسجلماسة وكانت مسافته بينهما تقرب من خمسين مرحلة⁽¹⁾ وهذه الطريق كانت تعج بالقوافل من كلتا العاصمتين وهى محملة بالسلع والمنتجات لغرض تبادلها. ولا غرو فان نشاط التجار الرستميين ترك آثاراً اجتماعية فى مدينة تاهرت ونجد كثيراً من التفاصيل عند المؤرخين والجغرافيين عن مظاهر العمران والرفاهية وتنوع الحضارة فى هذه المدينة ونخص منهم ابن الصغير المالكى الذى يشير الى ان أهل تاهرت "علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى"⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر ان منطقة ورجلان ومدينة ورجلان فى الصحراء كانت من اكبر القواعد التجارية فى الإمارة الرستمية وتتركز تجارتهم مع السودان فيذكر النفوسي بهذا الصدد قائلاً: "وكان أكثر المسافرين لتجارة السودان فى ذلك العهد من أهل مدينة ورجلان وهواره"⁽³⁾ كما أن قبيلة هواره من أكثر القبائل التى تولت النشاط التجاري فى شرق طرابلس وفى المغرب الأوسط وفى الصحراء وفى تاهرت وفى جبال أوراس وفى المغرب الأقصى وقد تخصصت فى التجارة مع بلاد السودان⁽⁴⁾ فضلاً عن ان أهل جبل نفوسة وهم رعايا فى الإمارة الرستمية قد تولوا مهمة النشاط التجاري مع السودان. أما تجارة الرستميين مع مصر فقد كانت هواره ونفوسة وبعض القبائل الأخرى تتولاها فقد كانت تجوب صحراء سرت نافلة البضائع التجارية بين المدن الرستمية فى المغربين الأدنى والأوسط وبين مصر⁽⁵⁾.

(1) المالك والممالك ص 37، 38.

(2) أخبار الأئمة الرستميين ص 13.

(3) الأزهار الرياضية ص 174 .

(4) محمد على دبور، تاريخ المغرب الكبير ج3 ص 348 (جاء ان قبيلة هواره انشأت مدينة اهفار) وجعلتها مركزاً لتجارتها مع السودان.

(5) محمد على دبور ن المصدر نفسه ص 351 .

(3) الأدارسة / إمارة الأدارسة:

امارة مستقلة، وهى تمثل آمال العلويين فى إقامة كيان سياسى لهم طالما افتقدوه فى المشرق الإسلامى بعد ان خذلهم العباسيون غداة إسقاط دولة الأمويين هناك، اذ كانوا يطمحون لتكوين دولة تركز على مقومات سياسية وإدارية وقد حققوا أهدافهم حيث برزت إمارتهم فى المغرب الأقصى، وهى تتحد فى الإجراءات العباسية التى كانت تستهدف القضاء عليها وتصفية أمرائها.

كان نظام الحكم فى اماره الادارسة وراثياً، حيث تولاها عشرة أمراء جميعهم من سلالة إدريس بن عبد الله، وبعد وفاة إدريس الثانى تولى ابنه محمد فقسم الإمارة الى أعمال (وحدات إدارية) لكل عمل منها دواوين وكتاب وجباة. وقد تمتعت اماره الادارسة بأسباب القوة والمتعة واستطاعت ان تبسط سيطرتها على اغلب القبائل المغربية فى منطقة المغرب الأقصى ومنها اوربة وضدنة وزناته وزواوة ولواته وسدراته ونفزة ومكناة وغمارة، لذلك يمكن القول ان قيام الإمارة يمثل فى جانبه الاجتماعى اتجاهاً يبلور صيغة لحركة جديدة ذات طابع قومى- إذا صح التعبير - فقد قامت على جهود هذه القبائل وكان انتصارهم لدعوة الادارسة قد تم باختيارهم منطلقين من مبدأ أحقية العلويين وهم آل البيت فى خلافة المسلمين لأنهم ورثوا باعتقادهم على النبوة وأسس الحكم وقد أفضت حركة الادارسة الى حركة ذات طابع محدد وأصبح لحكمهم آثار مهمة فى كيان المجتمع، اذ اعتمدوا مثل الإسلام وشريعته ومبادئه وأفكاره قوانين أساسية تنظم حياة المجتمع والفرد وتسيره وتحولت حياة القبائل الى الاستقرار الاجتماعى فى داخل المدن وأسهمت فى التحولات الاجتماعية والاقتصادية وأحدثت تطورات واضحة فى تقاليدها وعاداتها.

تتميز الحياة الاجتماعية فى مدينة فاس، بعدوتها، عدوة الاندلسيين وعدوة القرويين، بالاستقرار والأمن وانصراف الناس الى مزاولة أعمالهم فأدى ذلك الى العمران والازدهار وقد جذبت هذه المدينة إليها كثيراً من بطون القبائل والوافدين فأصبحوا من سكنتها ولعل إرساء الحكم على أسس قوية كان يشجع هؤلاء

وغيرهم على الاستقرار فى المدينة، فيشير الجزائى السى ان "استقامة الأمر لإدريس بن إدريس فى المغرب الأقصى، وتوطد ملكه وعظم سلطانه وقوة عسكره جعل وفود الناس إليه من سائر البلدان " (1).

والى جانب القبائل المغربية من زناته وأوربة وصنهاجة وغمارة فقد ضمت فاس نحواً من خمسمائة فارس من إفريقية والأندلس وهم من العرب واغلبهم من القيسيين الأزدي والخزرج ومدلج وبنى يحصب، ويذكر ابن خلدون ان إدريس بن إدريس قد سر بوفادتهم عليه ونزوعهم الى بلاده فأجزل لهم ووصلهم وقربهم منه وجعلهم بطانته واستوزر منهم عمير بن مصعب الأزدي الملقب بالملجوم " (2).

وشهدت فاس ازدهاراً فى العمران فى عهد يحيى بن محمد بن إدريس فبنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت الأرباض وأسست أم البنين فاطمة بنت محمد الفهرى المسجد الجامع بعدوة القرويين (3) وفى هذا الإطار ينقى الجغرافيون ضوءاً مفيداً على الحياة الاجتماعية فى مدينة فاس فيصفها اليعقوبى "أنها كثيرة العمارة والمنازل" (4) ويشير ابن حوقل الى الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل بين أهل العدوتين (5) ولعل هذا المؤرخ يشير الى الأحداث والفتن التى وقعت فيها نتيجة تدخل الأغالبة والفاطميين وأمويي الأندلس بشؤونها الداخلية واستعداد السكان بعضهم على بعض والظاهر ان هذا الوضع استمر حتى القرن الخامس الهجرى فيذكر الأدريسى الفتن والمقاتلات بين المدينتين (أى العدوتين) ثم يخلص الى القول "ان أهل مدينتي فاس يقتل فتيانهم بعضهم بعضاً" (6) .

(1) زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ص 13.

(2) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج4 ص 26، الجزائى، المصدر نفسه ص 13.

(3) ابن خلدون ن المصدر نفسه ص 29.

(4) كتاب البلدان ص 357.

(5) صورة الأرض ص 90.

(6) زهرة المشتاق ص 75-76.

وقد ضمت مدينة فاس فضلاً عن القبائل الموالية للأدارسة المتحضرين وبعض العرب الوافدين والأفارقة والاندلسيين عدداً من اليهود حتى ان البكرى يؤكد ان "فاس اكسر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها الى جميع الآفاق" (1) وربما ترك هؤلاء اليهود تأثيراتهم الاجتماعية نظراً لدورهم فى الحياة الاقتصادية حيث ان اغلبهم كانوا تجاراً أو أصحاب أموال وعقارات أو مرابين أو كانوا يزاولون أعمالاً ومنها تتصل بالمال والنقود.

ولعلنا نستطيع ان نستنتج مما جاء عند بعض المؤرخين حول قيام إدريس بن عبد الله مؤسس اماره الادارسة بفتح بلاد تامسنا وساله وتاولا وماسه التى كان أكثر سكانها على دين النصرانية واليهودية والمجوسية ان بعض هؤلاء ربما هاجروا الى مدينة فاس واستوطنوها وقد أشار الى ذلك البكرى بقوله: "ان هناك قوماً من قبيلة زراغة يعرفون ببني الخير وقوم زناته يعرفون ببني يرعش كانوا يدينون بالمجوسية والآخر باليهودية وبعضهم بالنصرانية يستوطنون المناطق القريبة من مدينة فاس وقد نزل بنو الخير فى عدوة القرويين وبنو يرعش فى عدوة الاندلسيين" (2) ولكن لا توجد معلومات تشير الى حدوث الفوضى والإضطرابات فى داخل المدينة بسبب تباين الأديان والنزعات ولعل سياسة الادارسة التى كانت تقوم على التسامح من جهة ونشاطهم فى التأثير الإجتماعى والاقتصادى على أهل الذمة ونشر الإسلام بين صفوفهم من جهة أخرى كان عاملاً أساسياً يحول دون ذلك.

لقد أسهمت القبائل المغربية المنضوية تحت نفوذ الادارسة الى جانب الفئات الأخرى من السكان بعد التطورات السياسية والاجتماعية التى شهدتها الإمارة بقسط كبير فى عملية التحولات الاقتصادية وتوضح التأثيرات التى أحدثها هؤلاء

(1) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 115.

(2) المغرب ص 114.

فى مجالات الزراعة فيما كانوا يقومون به بتحويل الأراضى والمناطق التى بسطوا عليها سيطرتهم الى أراضى صالحة للزراعة وطالما نسمع عن مزاولة السكان وانصرافهم الى الزراعة والاهتمام بمتطلباتها⁽¹⁾ فيتحدث اليعقوبى عن النهر العظيم الذى يقال له "فاس" وهو اعظم من جميع انهار الأرض⁽²⁾ وربما تكمن أهميته فى الاعتماد عليه فى الإرواء الزراعى ويؤكد ابن حوقل "ان هذا النهر كبير غزير المياه"⁽³⁾ مما ساعد على تحويل منطقة فاس الى أراضى خصبة صالحة للزراعة وتبدو مظاهر الاهتمام بالزراعة فيما كانوا يقوم به الناس من العناية ببساتينهم التى كانت تحوى أنواعاً من الثمر فيقول البكرى فى معرض حديثه عن مدينة فاس "وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخرق داره"⁽⁴⁾ ولعل المعلومات التى جاءت عن اختيار موضع مدينة فاس وتخطيطها وبنائها تفيدنا فى الاستنتاج ان هذه المنطقة كانت منطقة زراعية حيث جاء ان المكان الذى اختير لإقامة المدينة فيه عيون كثيرة تزيد على الستين عيناً وان مياهها تفيض على الأرض فسيحة فتروى الغياض ذات الأشجار الملتفة المطردة العيون والأنهار"⁽⁵⁾.

أما فى مجال التجارة فلا بد ان يكون لإمارة الادارسة بحكم موقعها فى المغرب الأقصى على طرق القوافل التى كانت تربط فاس بعواصم بلاد المغرب ومنها تاهرت والقيروان وسجلماسة، دور ملموس فى النشاط التجارى حيث كان لها نصيب من تجارة المشرق الإسلامى التى كانت تصل من بغداد والكوفة والبصرة ومن حلب ودمشق وطبرية والفسطاط والإسكندرية. وكذلك لم تعدم وجود صلات

(1) م. ن. ص 115.

(2) البلدان ص 357.

(3) صورة الأرض ص 90.

(4) المغرب ص 117.

(5) انظر: د. السيد عبد العزيز سالم، استنتاجه الذى توصل إليه من قراءة بعض النصوص المتعلقة بتأسيس مدينة فاس فى عهد إدريس الثانى (المغرب الكبير ج 2 ص 490).

تجارية مع إمارات الخوارج فى المغربيين الأدنى والأوسط فتشير المصادر الى انتظام سير القوافل بين فاس وسجلماسة حيث كان الطريق ممهداً بين المدينتين ويبدأ من فاس الى صفروى فقلعة مهدى فتأوله ثم الى وادى شعب الصفا ثم يمر عبر الجبل الكبير الى الجنوب حيث تقع مدينة سجلماسة وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق فتخرج من باب الفوارة فى مدينة فاس الى سجلماسة ويؤكد المؤرخون توافد الكثيرين من التجار وطلبة العلم من فاس الى سجلماسة ونشاط التجار المدرارين الواسع فى أسواق فاس⁽¹⁾.

وعلى الرغم من ان معلوماتنا عن السلع والمتاجر التى كانت تصدرها اماره الادارسة الى المراكز التجارية فى المغرب الإسلامى أو عن طريقها الى المشرق الإسلامى نادرة ولكن على ما يبدو ان السلع والبضائع التى كانت ترد الى فاس هى نفسها التى كانت تصدرها تاهرت وسجلماسة والقيروان وأهمها الفستق من مدينة قفصه والسكر والكمون والكرأوية والأحذية من سجلماسة وكذلك القمح والكروم والتمر فضلاً عن الثياب والمطرزات القطنية والمنسوجات الحريرية والصوفية والكتانية كما كانت تأتيتها القوارير الزجاجية وأوانى الخزف والتحف المعدنية والعطور من تاهرت وذلك على الرغم من ان العلاقات التجارية بين فاس وتاهرت كانت فى نطاق محدود⁽²⁾.

وتوجد لدينا معلومات قليلة ومشتقة عن عملة الادارسة من الدراهم والدنانير ولكن الأستاذ ليفى بروفنسال يغنى هذه المعلومات ويعززها ببحوثه واستنتاجاته فقد وجد فى المكتبة الأهلية بباريس درهماً ضرب فى مدينة فاس سنة 189هـ، وفى متحف مدينة خاركوف، درهم آخر ضرب فى مدينة فاس سنة 185 هـ كما عثر على عملات يظهر فيها اسم إدريس الثانى ضربت فى مدينتي ولىلى وتدغة تحمل التواريخ المتعاقبة لسنوات 181هـ ، 182هـ ، 183 هـ واستنتج كذلك ان

(1) ابن أبى زرع الأتيس المطرب ج1 ص 53، الأدريسى، نزهة المشتاق ص 10 الجزائى، زهرة الأس ص 29 ثم انظر د. محمود اسماعيل، الخوارج فى المغرب ص 208-209.

(2) ابن خلدون، العبر ج4 ص 422، ابن الخطيب، أعمال ص 13.

كذلك ان معظم العملات التى تحمل اسم إدريس بن إدريس ضربت فى مدينة العالية (أى عدوة الاندلسيين) فى سنوات 198هـ، 207هـ، 208هـ، 209هـ، 210هـ، 214هـ⁽¹⁾ ويشير ابن خلدون الى ان فاس كانت مركزاً لضرب السكة وصناعتها⁽²⁾ ولكن من المؤسف لا يوجد لدينا ما يشير الى حجمها وعيارها وقطرها ووزنها وأقيامها.

وهناك إشارات تدل على وجود بعض المظاهر الصناعية فى امارة بنى إدريس فنشاهد على نهر فاس ثلاثة آلاف رحى منصوبة تطحن الحنطة بثمن قليل⁽³⁾ كما توجد الارحاء لرفع المياه من النهر الى الدور والمساكن أو الى البساتين والأراضى للارواء وان هذه المطاحن والأرحاء كان يشغلها الصناع والمهرة والحرفيون وذلك بقوة جريان الماء وكان اغلب هؤلاء من القرويين أو الاندلسيين اذ تركوا تأثيراتهم فى الحياة الاقتصادية فأنشأوا الأسواق والحوانيت وأقاموا الدور والحوانيت للبيع والشراء كما زاولوا بعض الصناعات المرتبطة بأعمال البناء والعمران.

أما المعلومات التى أوردها الجزنائى فيما يتعلق بوجود صناعة الاطرزة بواسطة أنوال الحياكة التى كانت تعمل النسيج وكذلك صناعة الصابون الذى كان يعد من أهم مستلزمات المدينة وصناعة دباغة الجلود وصناعة تشبيك الحديد والنحاس وصناعة عمل الزجاج وصناعة الورق والطابوق فى مدينة فاس فى عصر دولتي المرابطين والموحدين⁽⁴⁾، أن هذه الصناعات لابد أن تكون استمراراً لما كانت عليه فى عهد الادارة .

(1) الإسلام فى المغرب و الأندلس ص 15-19

(2) العبر ص 423.

(3) زهرة الآسى فى بناء مدينة فاس ص 33.

(4) زهرة الآسى فى بناء مدينة فاس ص 33.

(4) الأغالبة / إمارة الأغالبة:

تشكلت إمارة الأغالبة فى مناطق المغربىن الأدنى والأوسط، وكان بنو الأغلب قد نصبهم العباسيون ولاية شبه مستقلين يحكمون ويحافظون على ممتلكات العباسيين ونفوذهم الروحى والمادى فى تلك المناطق ويقفون ضد توسع الإدارة والخوارج بعد قيام إماراتهم، فشرعت قوانينهم وأنظمتهم وفقاً لذلك ووجهوا جيوشهم لصد الهجمات المحتملة التى قد تقوم بها العناصر المناوئة للخلافة العباسية أو لمبادرتهم بالهجوم على المناطق والأتحاء التى تسيطر عليها تلك العناصر ولكن بعد انتهاء عهد إبراهيم بن الأغلب مؤسس الإمارة وتولى ابنه زيادة الله بدأوا يتجاهلون الى حد ما مخالفتهم للعباسيين خدمة لمصالحهم التى استجذت وذلك نتيجة للظروف والملابسات التى كانت تلف المغرب الإسلامى وبعد ان واجهوا كثيراً من المتغيرات على مدى نصف قرن من بداية تنصيبهم فى المغرب وافريقية ووجودهم منفردىن فى الدفاع عن الخلافة العباسية

ويمكن القول، ان الاستقلال المحدود الأفق الذى فوضه الخليفة العباسى هارون الرشيد لإمارة الأغالبة حدوده اشتراطات الضمانات المالية والاستمرار بدفع ما أطلق عليه الجزية السنوية لبيت مال الخلافة والتزام أمراء الأغالبة بتسديد هذه الإعانات وتنفيذ إجراءات الخلافة يحتم على هذه الأخيرة تثبيتهم بولاياتهم وتزويدهم بشعار التقليد والخلع والإعلام مما يجعل حكم الإمارة يتخذ أسلوباً وراثياً فتولاها احد عشر أميراً تميز الأوائل منهم بالقوة والنفوذ مما أتاح لهم الانصراف القيام بالإصلاحات فقد اتخذوا إضافة الى القيروان عاصمة لهم، ومدينة القصر القديم "العباسية" اذ نقلوا إليها بعد اكتمال بنائها سلاحهم وعددهم وسكنوها مع عبيدهم ورجالهم وأصبحت دارهم ومستقرهم⁽¹⁾ وهذا لا يعنى إهمال القيروان فقد غدت لهم حاضرتان تنافسان اجتماعياً وثقافياً.

والظاهر ان اتخاذ بنى الأغلب لحاضرة جديدة، لم يغير فى البناء الاجتماعى لمدينة القيروان حيث لا توجد لدينا معلومات عن هجرة مؤثرة منها الى العباسية

⁽¹⁾ ابن الأثير، الكامل ج 6 ص 56.

سوى ما وقع اختيارهم على بعض الجماعات والفئات والعناصر التى تؤيدهم سياسيا بل يمكن القول، ان القيروان احتفظت بكيانها الإجتماعى كما زاد فى مكانتها اتخاذها حاضرة للأغلبية ومركزا سياسيا واقتصاديا حتى وصفت أنها "أم أمصار وقاعدة أقطار"، وكانت اعظم مكن المغرب قطرا وأكثرها بشرا وأوسعها أحوالا⁽¹⁾.

وحسب المعلومات التى بين أيدينا فان القبائل المغربية لا يشكلون نسبة عالية من السكان لإمارة بنى الأغلب على الرغم من انهم يؤلفون السواد الأعظم من سكان المغرب الإسلامى وإشارة ابن عذارى الى طاعة القبائل المغربية لإبراهيم بن الأغلب⁽²⁾ تعنى دخول هذه القبائل تحت نفوذه حيناً ثم خروجها عليه فى أحيان أخرى مما يجعل استقرارهم الإجتماعى متأثراً الى حد كبير بموقفهم السياسى، ولكن من الملاحظ ان المشاركة هم الأكثرية فى سكان مدينة القيروان.

إن الأغلبية ينتمون الى عرب بنى تميم مما يوفر فرصة لهؤلاء فى ان يحتلوا مكانة لا تدانيها مكانة العناصر والأقوام الأخرى، ثم ان الصراع بين العناصر المؤيدة للأغلبية من عرب المشرق وبين عناصر من قبائل المغرب، اقنع الأغلبية بضرورة الاحتفاظ بعناصر احتياطية فى الجيش يمكن استخدامها عندما تحين معارضة العناصر المعادية أو اندلاع ثوراتهم الذين ذاقوا الأمرين من سياسة الولاة العباسيين القائمة على التمييز والاضطهاد.

غير أن العرب الذين أقاموا فى مدينة بلزمة وبعضهم كان من أعقاب العرب الفاتحين وهم قيسيون وبعضهم الآخر من العرب الشاميين الذين دخلوا البلاد فى الحملات العسكرية التى كانت ترسلها الخلافة العباسية لإخماد حركات المعارضة

(1) الأدريسى، نزهة المشتاق ص 110 .

(2) البيان المغرب ج 1 ص 92.

ضد الأغلبية الى نكبات أدت الى تصفياتهم⁽¹⁾، ويشير ابن عذارى الى ان تصفية الجند العرب البلزميين على يد الأغلبية كان من "أسباب انقطاع دولة بنى الأغلب اذ كان أهل بلزمة فى نحو ألف رجل من أبناء العرب والجند الداخلين الى افريقية عند افتتاحها وبعده، وكان أكثرهم من قيس وكانوا يذلون كتامة فلما قتلهم إبراهيم استطالت كتامة ووجدت السبيل للقيام مع الفاطميين ضد بنى الأغلب"⁽²⁾.

ويبدو ان ما دفع الأغلبية، قتل هؤلاء وغيرهم من عرب تميم الذين كانوا يستقرون فى تونس ويتمتعون بامتيازات كثيرة، انهم كانوا وراء الأحداث السياسية التى كانت تقوم بها عناصر من قبائل المغرب ضد حكم الأغلبية أو تأجيج الأحداث التى كان يقوم بها الخارجون عليهم والتحريض ضدهم وأحيانا الاشتراك معهم أو قيادتهم فى الثورات التى كادت ان تؤدى بكيان إمارتهم⁽³⁾.

ولعل الجند العرب الذين استكثر منهم الأغلبية فى جيوشهم كانوا يشكلون طبقة متميزة ونظامية وبعضهم كان يستنفر للحرب وهم يحاولون التمويه لمصالحهم وامتيازاتهم فأعلنوا ثوراتهم بوجه الأغلبية وعمالهم فى القيروان والمدن الأخرى⁽⁴⁾ واصبحوا خطراً على إمارتهم وبخاصة فى عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب حتى وصل بهم الأمر الى درجة انهم كتبوا إليه ان "ارحل عن افريقية ولك الأمان فى نفسك ومالك فقاتلهم زيادة الله وقضى عليهم"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ فى سنة 280هـ استقدم الأغلبية منهم سبعائة من أبطالهم فى القيروان وابتليت لهم دارا كبيرة وضعوا فيها ثم قتلوا جميعا (ابن عذارى، البيان ج1 ص 123)

⁽²⁾ م . ن . ص 124 .

⁽³⁾ ابن الاثير ، الكامل ج6 ص 104 ، ابن خلدون ، العبر ج4 ص 419 .

⁽⁴⁾ من ثورات الجند ثورة عمرو بن معاوية القيسى فى مدينة القصرين سنة 208هـ وثورة منصور الطنبزى بتونس سنة 209هـ وثورة عامر بن نافع فى سببية سنة 210هـ والثورات فى مدينة بلزمة وقد اثار قمع الأغلبية لهذه الثورات عرب تميم وعرب الجزيرة والاريس وباجه وقمودة .

⁽⁵⁾ ابن عذارى البيان ص 201 .

أما الفئة الاجتماعية الأخرى فى اماره بنى الأغلّب فهم المشاركة الذين قدموا من خراسان وكان بعضهم جنداً فى الجيش⁽¹⁾ وكان يعيش غالبية هؤلاء المشاركة فى القلاع البيزنطية القديمة فى قابس والقيروان، وبونه وباجه ومجانه أو فى القلاع القديمة بإقليم توميديا الروماني مثل قلاع طبنة وباغاية والاريس⁽²⁾ وقد ترك هؤلاء تأثيراتهم فى الحياة الاجتماعية وخاصة فى مدينة القيروان حيث كان بعضهم من العلماء والفقهاء أو كانوا من أصحاب الحرف والمهن أو الصنائع.

وهناك الى جانب الجند العرب والقبائل المغربية والمشاركة الروم القدم⁽³⁾ وهم من أعقاب سكان قرطاجنة وكانوا يقيمون فى القلاع البيزنطية القديمة مثل طبنة وباغاية وفى مدن الجريد الصغيرة التى يبدو إنها اتخذت ملاذاً لغير العرب من أهل البلاد كما أقام بعضهم فى مدينة القيروان باعتبارها حاضرة البلاد وأملاً فى الحصول على فرصة عمل يعيشون منه⁽⁴⁾.

ونقرأ كذلك عن وجود الأفارقة، وهم نصارى من بقايا الفينيقيين واللاتين أقاموا فى إقليم الجريد ومدن قنصة وتوزر ونفطة وتقيوس والجامعة واقامت طائفة منهم فى مدينة طبنة ومدينة باغاية وفى السهول الساحلية⁽⁵⁾ وقد قامت سياسة بنى التغلب على التسامح معهم وفوتح البعض منهم باعتراف الإسلام فرفض⁽⁶⁾.

ويشكل "العبيد السود" الذين جلبوا من منطقة الصحراء أو من بلاد السودان فئة طارئة على المجتمع وقد اتخذ أمراء الأغلبية بعضهم حرساً لهم أو جنداً كما ان هناك "العبيد البيض" وهم الصقالبة الذين حملوا من صقلية وسردانية وقلورية

(1) من المعروف ان القاضى أسد بن الفرات الفقيه الذى قاد الحملة الى صقلية فى عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم كان خراسانياً.

(2) د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج2 ص 417 .

(3) اليعقوبى، البلدان ص 135 .

(4) د. السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق ص 419 .

(5) م . ن . ص 420 .

(6) ابن عذارى، المصدر السابق ص 122 .

ومالطا وقد سمي هؤلاء بالفتيان ولعبوا دوراً مهماً في إمارة الأغلبية من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية⁽¹⁾.

ولعل أهم مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية في القيروان خلال هذه الفترة هو الثراء فقد تجمعت لدى السكان الثروة الذهبية التي كان الحصول عليها ميسوراً بواسطة الاتجار وكانت هذه المظاهر واضحة في الأسرة الحاكمة وفي بعض الفئات الاجتماعية وفي طليعتها فئة التجار كما ظهر ذلك في بناء المنازل الرفيعة وفي التفتن في اللباس والمأكول .

وكان المجتمع القيرواني مقسماً إلى فئات اجتماعية على رأسها فئة التجار التي كانت فئة بارزة في المجتمع ومحظوظة اجتماعياً ويلاحظ أن عدداً من علماء القيروان كانوا من هذه الفئة إذا اشتغلوا في ميدان التجارة فحازوا على أموال كثيرة. وهناك فئة الجند وفئة العلماء الذين تعرض عدد كبير منهم إلى الاضطهاد نتيجة لمواقفهم في مسائل تتصل بالدين والحياة العامة وفئة أهل الذمة من اليهود والنصارى التي استقرت في القيروان والظاهر أن فئة الرقيق أو العبيد كانت تشكل الدعامة الأساسية لإمارة الأغلبية حيث يبرز دورها في الحياة الاقتصادية فهم القوة المنتجة الأولى⁽²⁾ ودورها يشبه إلى حد كبير دور طبقة العمال في الوقت الحاضر. أما الفئة الأكثر عدداً في مجموع السكان فهم طبقة العامة (الفقراء) أو طبقة

(1) كان بعضهم يشرف على دار السكة فسجلت أسماؤهم على العملات كما نقشت أسماء البعض منهم على النقوش التاريخية والمنشآت ومن هذه الأسماء المسجلة: اسم مسرور الخادم مولى الأمير زيادة الله بن إبراهيم واسم خلف الفتى ونصر وفتح الله نقشت جميعها على قبة المحراب بجامع الزيتونة (د. السيد عبد العزيز سالم، المصدر نفسه ص 420)

(2) وقد تعدد اختصاصهم فشمل عمل الجوّاري في المنزل للخدمة والرضاعة وتربية الأطفال وشئون الطحن والطبخ وجلب الماء وهناك فئة منهم خصصن للزواج وكذلك فئات الحدادين والنجارين والبنّاعين وأصحاب المهن والصناعات المختلفة في أكثر مرافق الحياة العامة (انظر للاستزادة ك. د. الحبيب الجناحي، المغرب الإسلامي ص 92).

السواد وهى تتألف من عناصر العبيد والإجراء أو النازحين من الريف كما ضمت إليها عدداً من النخبة المثقفة وهذه الفئة قد نالها فى عهد الأغالبة من البؤس والحرمان ما جعلها وراء اغلب الانتفاضات السياسية والدينية والحركات الاجتماعية فى القيروان⁽¹⁾ .

أما الأحوال الاقتصادية التى تميزت بها منطقة المغرب الأدنى فى عهد الأغالبة فيزودنا المؤرخ والجغرافى، اليعقوبى بمعلومات مهمة عنها وبخاصة فيما يتعلق بالزراعة والصناعة والتجارة مما يساعدنا على معرفة عوامل الازدهار الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى اتسم به عهد الأغالبة والظاهر أن قيام إمارة الأغالبة فى هذه المنطقة قد رافقه نوع من الاستقرار السياسى والاجتماعى الذى دفع كثيراً من السكان إلى مزاولة الزراعة والاهتمام بمتطلباتها فظهرت المناطق الزراعية التى حددها اليعقوبى وأهمها المنطقة الواقعة بين قمودة والساحل حيث البساتين والقرى المتصلة ثم منطقة بلاد الجريد جنوب مدينة قمودة ومنطقة بلاد باجة الخصبة إلى الشمال منها⁽²⁾. وقد أبدى اليعقوبى دهشته لمظهر الخضرة وكثرة الأشجار فى هذه المناطق وخاصة الأولى منها وأهم أشجارها الزيتون والنخيل والكروم⁽³⁾ أما المنطقة الأخيرة فكانت متخصصة بزراعة الحبوب وخصوصاً القمح وكذلك الفواكه وقصب السكر واشهر مدن هذه المنطقة هى "جلولا" التى تقع بالقرب من القيروان وأغلب زراعتها قصب السكر الذى كان ينتج بكميات وفيرة⁽⁴⁾ ومدينة تونس التى وصفت بأنها أطيب ثمرات وأنقى فاكهة من جميع مداين إفريقية فمن ذلك اللوز الفريك والرمان الضعيف والاترج الجليل والتين الجارمى والسفرجل

(1) المصدر نفسه ص 85-94.

(2) البلدان ص 349.

(3) م. ن. ص 350.

(4) البكرى، المغرب ص 40.

المتناهي والغاب الرفيع والبصل القلوري⁽¹⁾ ومدينة قنصة التي كانت أكثر بلاد المغرب فستقاً ثمرها مثل بيض الحمام وفيها أنواع الفواكه والثمر⁽²⁾ . وهكذا أصبحت الزراعة من الضرورات التي تتطلبها الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى فالمحصولات الزراعية والغذائية مثل الحبوب والثمار والكروم والزيتون والتمور وغيرها كانت سلعاً للتجارتين الداخلية والخارجية وليس أول على ذلك من المعلومات والإشارات التي جاءت عند بعض المؤرخين⁽³⁾ والجغرافيين والبلدانيين⁽⁴⁾ .

كما نقرأ عن وجود بعض الصناعات المتقدمة في منطقة المغرب الأدنى التي تبسط إمارة الأغالبة سيطرتها عليها، منها صناعة السفن في تونس حيث استمرت دار الصناعة التي أمر بإنشائها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لغرض تكوين أسطول بحري دفاعي لمواجهة الأخطار المتأتية من الإمبراطورية البيزنطية وقد استعين بأقباط مصر الذين كانوا يمتلكون الخبرة والدراية في صناعة السفن⁽⁵⁾ وقد

(1) م. ن. ص 41.

(2) م. ن. ص 47.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب، ابن الأثير، الكامل ابن خلدون، العبر، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المقرئ، نفح الطيب.

(4) البعقوبي، البلدان، ابن حوقل، صورة الأرض، الأصبخري، المالك والممالك البكري، المغرب في بلاد إفريقية والمغرب، المقدس، احسن التقاسيم.

(5) يذكر البكري بناء المسلمين للسفن في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في مدينة تونس (ترشيش) فقد كتب الخليفة إلى أخيه عبد العزيز وكان والياً على مصر حينذاك أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبضي من أقباط مصر بأهلهم وأولادهم ويوصلهم إلى تونس وكتب إلى حسان بن النعمان يأمره أن يبني لهم دار الصناعة لتكون قوة واعدة للمسلمين إلى آخر الدهر وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر وأن يغار منها على ساحل الروم فيشغلوا عن القبروان نظراً للمسلمين وتحصينا لشأنهم فوصل القبط إلى حسان بن النعمان وهو مقيم بتونس فأجر البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة وجر البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتهما في المغرب (ص 38-39).

تطورت هذه الدار وتوسعت فى صنع المراكب العسكرية التى استخدمت فى التوسع البحرى⁽¹⁾.

والى جانب دار الصناعة فى تونس وقعت الإشادة إلى قيام صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن التى كانت تعتمد على الحديد الذى كان يجلب من مناطق استخراجها فى مدينة مجانة⁽²⁾ أما دار الصناعة فى مدينة سوسة فلا يقدم لنا البكرى تفصيلات كثيرة عنها سوى إنها كانت لتصلح السفن أو كانت مرفأ لرسو المراكب والسفن الحربية والتجارية للتأكد من صلاحيتها لركوب البحر⁽³⁾.

وكذلك نسمع عن صناعات كانت تقوم على الحديد مثل صناعة السيوف ولحم الخيل والآلات والعدد الحديدية المرتبطة بالبناء والعمران مثل أبواب الدور والمنازل والمنشآت والقصور والمساجد وأبواب الأسوار والحصون والمحارس والخانات وآلات القطع والحفر وبعض أنواع من الأسلحة. والظاهر أن المحفز لهذه الصناعات وغيرها توفر الحديد والفضة والكحل والزنك والرصاص⁽⁴⁾ حيث قامت صناعات مختلفة مثل صناعة التحف الذهبية والفضية والنحاسية إذ اقتنى منها الأمراء والوجهاء فى قصورهم وبخاصة التحف والسروج المفضضة والنجم المذهبة والسيوف المحلاة وصفوف الآنية من الذهب والفضة⁽⁵⁾.

أما صناعة الزجاج الذى كان مظهراً من مظاهر المدنية ومستلزماتها فهناك ما يشير إلى وجودها فى مدينة القيروان، وينهض حي الزجاجين فى المدينة دليلاً على ازدهار هذه الصناعة وكذلك صناعة الخزف المتأثرة بالتقاليد العراقية

(1) ومنها الاستيلاء على جزيرة صقلية حيث أصبحت جزءاً من البلاد الإسلامية فى عهد الأمير زيادة الله إبراهيم بن الأغلب.

(2) اليعقوبى، المصدر السابق ص 349.

(3) المغرب ص 34.

(4) اليعقوبى، المصدر نفسه ص 350.

(5) ابن عذارى ن المصدر السابق ص 138، 148.

والمشرقية، حيث كان الصناع العراقيون يستخدمون لتزيينه واجهات محاريب المساجد وأبواب القصور بزخارف التريبعات الخزفية ذات البريق المعدني⁽¹⁾.

وكان لمدينة القيروان تراثها فى صناعة المنسوجات الحريرية الرفيعة والثياب⁽²⁾. كما إن الحياكة فى مدينة سوسة كانت كثيرة، وكان يغزل بها غزل يباع زنة المثقال منه بمئقالين من الذهب، وكانت منتوجات مدينة القيروان من المنسوجات ترسل إليها لإجراء عملية القصر وجعلها ناصعة البياض⁽³⁾، وعرفت مدينة طرافى بنوع من الألبسة تسمى "الكساء الطرافى"⁽⁴⁾ وهناك صناعة السجاد المحلية التى اشتهرت بها القيروان وبعض المدن الأخرى حيث كانت هذه الصناعة استمرار منذ العهد الرومانى .

ومن الصناعات المتخصصة التى كانت تعتمد على الإنتاج الزراعى صناعتان أولاهما صناعة زيت الزيتون يستخرج من الزيتون الذى كان ينتج فى المناطق الساحلية وفى الأقاليم الزراعية، يوضح البكرى إن أشجار الزيتون والنخيل تغطى السهول الرملية (بالقرب من مدينة صفاقس الحالية) ففى هذه المنطقة الساحلية بساتين وقرى متصلة كل منها تضم معصرة للزيت⁽⁵⁾. أما الصناعة الثانية فهى صناعة النبيذ أو الشراب باستخلاصه من الكروم التى تكثر زراعتها جنوب إقليم قفمورة وقسطينية⁽⁶⁾، فضلاً عن صناعة السكر من القصب الذى تنتجه مدينة

(1) البكرى، المصدر السابق ص 35 .

(2) م.ن. ص 36 .

(3) م.ن. ص 37 .

(4) م . ن . ص 47

(5) م . ن . ص 24، 26 .

(6) وكان أمراء الأغالبة يدمنون على شرابه ومنهم محمد بن الأغلب بن إبراهيم وزيادة الله بن عبد الله .

جلولا وإنتاج العسل الجيد ، وإنفراد تونس بصناعة آنية الماء من الخزف التسي كانت تعرف بالريحية⁽¹⁾ .

أما صناعة السكة والنقود، فقد ارتقت في عهد الأغالبة، وكانت تضرب في دار الضرب أو دار السكة في القيروان وفي العباسية، ويلاحظ أن الدنانير الذهبية حافظت على وزنها وحجمها وعيارها طوال عهد الأغالبة، أما الدراهم الفضية فكانت تضرب صحاحاً أو أجزاءً من قطع معدنية صغيرة⁽²⁾ .

وتشكل التجارة في الأجزاء التي تهيمن عليها إمارة الأغالبة من المغرب الأدنى، حجر الزاوية في النشاط الاقتصادي فقد كانت القيروان مركزاً للتجارة العالمية ونقطة لقاء بين المغرب والمشرق الإسلاميين من جهة وبين التجارة (المتوسطة)* وقوافل التجارة الصحراوية من جهة أخرى⁽³⁾ حيث استقبلت قوافل التجارة من سائر أنحاء المغرب ومن مراكزها في تاهرت ومجلماسة وفاس وقرطبة وودغست فضلاً عن بلاد المشرق الإسلامي وبلاد السودان . ولم تكن العلاقات السياسية غير الودية بين هذه الدول والإمارات، لتحول دون توطيد صلاتها التجارية، فمن جهة ترتبط القيروان بخط سير القوافل الخارجة من تاهرت إلى القيروان وهاز والمسيلة وأدنة وطبنة وباغاية ومجانة وسببية⁽⁴⁾ كما يربطها خط آخر يخرج من سجلماصة إلى تاهرت ثم إلى القيروان⁽⁵⁾ . أما التجارة التسي كانت تحصل عليها إمارتا الخوارج الرستميون والمدرايون وإمارة الأدارسة، من الأندلس، فينقلها التجار إلى القيروان بواسطة القوافل التي اعتادت السير على الطرق المعتادة، ومن جهة كافية، فإن نصيب القيروان ومدن المغرب الأدنى

(1) وهي شديدة البياض ورقيقة وشفافة ليس لها نظير في جميع الأقطار وعامة الأمصار (م . ن . ص 41).

(2) ابن عذاري، البيان ج 1 ص 120-121.

* منحوتة نسبة للبحر المتوسط (بحر الروم).

(3) د. الحبيب الجمناني، المصدر السابق ص 61.

(4) البكري، المصدر السابق ص 143-146.

(5) الأصبغري، المالك والممالك ص 37، 38.

الأخرى كبير في تجارة المشرق التي تأتي من بغداد والبصرة فضلاً عن توطد الصلات التجارية بين بغداد وحاضرة العباسيين وإمارة الأغلبية، تلك العملات التي كانت تعكسها علاقات التحالف بين الطرفين وتجنى القيروان من التجارة الخارجية بكونها إحدى مراكزها، بصناعات وسلعاً كثيرة، فتحصل من سجلماسة على السكر والكمون والكرامية والأحذية وعن طريق تاهرت وسجلماسة تحصل على السلع السودانية التي كانت تزداد أهميتها على البضائع والمواد الأخرى، أما الثياب القطنية والكتانية والحريرية والأنسجة المطرزة فكانت تزداد أهميتها من قرطبة التي نالت فيها شهرة واسعة (1).

والظاهر أن تجار القيروان، كانوا نشطين في نقل تجارتهم بين مراكز التجارة في العالم الإسلامي، فكانوا يختلفون إلى عواصم دول المغرب ومراكزه التجارية المهمة فضلاً عن بغداد ومدن المشرق، ويشير ابن الصغير المالكية إلى حرية المتاجرة التي كان يخطى بها تجار القيروان في أسواق تاهرت، حيث كانوا يقدون إليها بأعداد كثيرة (2).

ونذكر البضائع والسلع التي كانت تصدرها القيروان وأهمها الزيتون وزيت الزيتون والآلات المصنعة من الذهب والفضة والسيوف ولحم الخيل وبعض المنسوجات السوسية والسجاد والنبذ والآلات الحديدية المستخدمة في صناعة السفن والمراكب ولكن التجارة التقليدية للتجار القيروانيين هي تصدير فستق مدينة قنصة الذي ينتشر بأفريقية ويحمل إلى مصر والأندلس وسجلماسة وأثواب مدينة طراف (3) وتمور مدينة توزر، وتتسرب تجارة هذه السلع إما براً أو بحراً (4) عن طريق موانئ تونس وسوسة اللتان تمتلكان مراسي كبيرة على ساحل البحر أما في نطاق التجارة المحلية، فيسود نشاط في تبادل المحصولات الزراعية وبعض

(1) الحميري، صفة جزيرة الأندلس ص 21.

(2) أخبار الأئمة الرسامين ص 13.

(3) والملاحظ أن الكساء الطرافي كانت تختص به التجارة إلى مصر (البكري، المصدر السابق ص 47).

(4) البكري، المصدر نفسه ص 34.

المصنوعات المحلية ويشير البكرى إلى تزويد مدينة جلولا لمدينة القيروان بقصب السكر وأحمال كثيرة من الفواكه والبقول⁽¹⁾ ومدينة سوسة بكثير من الأمتعة والتمر واللحوم والفواكه⁽²⁾ ومدينة قنصة بالتمر وأنواع الفواكه والتمر⁽³⁾.

وتعكس أسواق القيروان وأسواق المدن الأخرى، صورة عن النشاط التجارى الذى يسود فى إمارة الأغلبية وعن حركة التطور العمرانى فى منطقة المغرب الأدنى ومن أسواق القيروان، السوق الكبير الذى يسمى "سماط القيروان" وسوق البزازين وسوق السراجين وسوق الضرب وسوق الجزارين وسوق الزجاجين وسوق النحاسين وسوق القطانين وسوق الدجاج وسوق الغزل وسوق الخرازين وسوق الأحد وحوانيت الرهادنة⁽⁴⁾.

وهكذا يبدو التأثير الذى تركه الأغلبية فى الحضارة العربية الإسلامية واضحاً وجلياً فيما خلفوه من معالم حضارية فكرية ومادية، وقد لعبت القيروان التى اتخذوها حاضرة ملكهم دوراً أساسياً فى ترسيخ المفاهيم الحضارية وغدت مركزاً مشعاً من مراكز العلم والثقافة والاقتصاد والتطور الاجتماعى فضلاً عن كونها دائرة لسياساتهم وقاعدة لجيوشهم وقوتهم العسكرية، لقد واصلوا الاهتمام بإنشاء المدن التى أصبحت محطات علمية، كما أنشأوا العمارات الكبرى التى احتلت مكانة بارزة فى تاريخ الحضارة الإسلامية مثل المسجد الجامع فى القيروان وجامع الزيتونة فى تونس والمسجد الجامع فى سوسة وحصنوا المدن وأقاموا لها الأسوار وحفروا المواجهل وأسسوا نواة الأسطول الإسلامى.

لقد قدم الأغلبية صورة واضحة عن الاستقلال الذاتى وعن ارتباطهم بسياسة التحالف المرنة مع الخلافة العباسية التى كانت تقوم على إدراك لطبيعة ظروف المغرب الإسلامى فعملوا فى إطارها بعيد سياسى فترسخت إمارتهم وتدعمت أركانها وتوطد حكمهم.

(1) البكرى، المصدر السابق ص 32 .

(2) م . ن . ص 34-35 .

(3) م . ن . ص 47 .

(4) د. الحبيب الجنحماني، المصدر السابق ص 67-68 .

(5) الدولة الفاطمية:

قامت الدولة الفاطمية على أنقاض بعض الإمارات والدويلات فى مناطق المغربين الأوسط والأقصى، وقد أفاد الفاطميون من نظمها ورسومها وذلك بعد قيام دولتهم، وكان عبيد الله المهدي اتخذ الإجراءات التى تضمن توطيد سلطته السياسية والإدارية ومنها تلقبه "أمير المؤمنين" وهو لقب الخلفاء العباسيين دون غيرهم، وتعيين بعض رجاله فى مناصب مهمة فى الدولة مثل المشرفين والمنظمين لبيت المال وتسمية القضاة للقيروان ورقادة وجعل القضاء مستقلاً عن سلطته ونفوذه وتنظيم ديوان الكتابة والرسائل وديوان الخراج وديوان الحجابة وتعيين العمال والولاة والجباة والسعاة فى عموم منطقة دولة الفاطميين وفى منطقة قابس وتقييد الموالى وأبناء العبيد وأمثالهم فى ديوان العطاء واستحداث الدور لضرب النقود والسكة.

ويبدو أن عبيد الله المهدي قد استأثر بما يطلق عليه فى الوقت الحاضر بالسلطة المطلقة فى الحكم، فسعى إلى تجريد أبى عبد الله قائد جيوشه ومؤسس الحركة الفاطمية من سلطاته وإبعاد رجاله عنه ثم الإجهاد بتصفيته مبرراً ذلك بأنه كان يسعى إلى إفساد هيبة الإمام المعصوم وهيبة الدولة والإحاطة به، كما جرد بعض بطون كتامة ممن عهد إليهم وظائف فى الجيش والدولة من مناصبهم.

ويمكن القول أن عبيد الله المهدي، استطاع أن يحول الحركة الفاطمية من دعوة سرية إلى نظام دولة تقليدية مستقرة لها رئيس وموظفون رسميون وتقاليد ورسوم وأنظمة وبخاصة فيما يتعلق بالنواحي الإدارية، حيث عهد إلى أنصاره من القبائل أن تقوم بالمحافظة على استتباب الأمن والقضاء على الاضطرابات وتحقيق الاستقرار كل فى منطقته وذلك من خلال تولي مناصب القضاء وتنظيم الدواوين والحياة الاجتماعية والاقتصادية بتعيين المحتسبين والجباة والمحصلين ومراقبة الأسواق والإشراف على الباعة وأصحاب العتاريات.

وعلى الرغم من أن التنظيمات الاجتماعية فى القيروان هى استمرار لما كانت عليه الحال فى عهد الأغالبة الرستميين والمدراريين، غير إن هناك بعض التطورات بعد استحداث مدينة المهدية، فقد ظهرت فيها طبقة جديدة حاكمة كونتها قبيلة كتامة من مئات من بطون قبائل عجيصة وزواوة وزويلة حيث كانت تنتقل بين المهدية ومدينة زويلة. ونقرأ عن تميز المهدية بالقصور والمنشآت التى زودت بالمواجل وصهاريج المياه والاهراء وتحصينها بأسوار منيعة لها أبواب حديدية، كما عمرت بالأسواق والأرباض والحمامات والفنادق وكذلك مدينة المسيلة أو المحمدية التى جعلها الفاطميون مأوى للنازحين من الأندلس لأغراض سياسية واجتماعية.

أما المدن والمناطق التى كان ورثها الفاطميون عن الأغالبة وأهمها رقادة وتونس وقرطاجنة وطرابلس وتنس وبرقة، فقد تحركت لتتخذها بطون قبيلة كتامة وبعض القبائل الأخرى المناصرة لهم موطناً لها فبنيت فيها القصور والبيوت والمنشآت وعمرتها فكانت لها فيها أهل وذرية وجماعة⁽¹⁾.

وكان الفاطميون وجهوا اهتمامهم لإعاش الحياة الاقتصادية، فلم يكد يتم لهم الاستيلاء على أجزاء من المغرب الأدنى وبعض المغريين الأوسط والأقصى حتى استطاعوا أن ينشروا الثراء والرخاء بين رعاياهم لأنهم وطموا أنفسهم على خلق حضارة تنافس حضارة العباسيين، بل ينبغى أن تتفوق عليها فى جميع الميادين وخلال حكمهم للمغرب نقرأ كثيراً من النصوص التى تقدم صورة جلية عن هذا الرخاء والغنى الذى كان عليه الناس والذى تجسد فيما بعد فى الازدهار الزراعى ونظم الري والنشاط التجارى وقيام الصناعات وتعددها واستقرار النظام النقدى وليس أول على أهمية الأحوال المالية لدى الفاطميين من توليه عبيد الله المهدي فى بداية تأسيس الدولة وقيامها لأبى جعفر الخزرى على بيت المال وأبى القاسم

(1) ابن عذارى، المصدر السابق ص 167.

بن القديم لديوان الخراج ولبنى بكر الفيلسوف المعروف بابن العمودي لديوان السكة ولعبودي بن حباصة لديوان العطاء⁽¹⁾ .

وفى نطاق النشاط التجاري، فقد ورث الفاطميون عن الأغلبية أسس هذا النشاط وتقاليده ومؤسساته فى بلاد المغرب، فقد آلت إليهم القيروان التى كانت مركزاً للتجارة العالمية ونقطة التقاء للطرق التجارية الداخلية والخارجية إلى بلاد المشرق والأندلس، كما ورثوا موانئ تنس وسوسة اللتان كانتا ترتبطان بعلاقات تجارية بحرية مع موانئ الأندلس والإسكندرية وكذلك ما ورثه الفاطميون من أساطيل بحرية تجارية عن الأغلبية حيث أصبحت من ممتلكاتهم.

ويصح القول أن النشاط التجاري لمدينة القيروان والمراكز التجارية الأخرى خلال العهد الفاطمي فى المغرب هو استمرار لما كان عليه فى أواخر عهد الأغلبية مع بعض الفروق التى يمكن القول بازدياد هذا النشاط وتوسع المراكز الاقتصادية وتوطد العلاقات التجارية بعد أن أسس الفاطميون مدينة المهدية فأصبحت ميناءاً وقاعدة لتجارتهم مع الإسكندرية وبلاد الشام والعراق وصقلية والأندلس⁽²⁾.

وأخيراً فلا غرابة إذا ما أدركنا عمق التأثيرات التى تركها الفاطميون من جوانبها الاجتماعية والاقتصادية، فقيام الدولة الفاطمية فى المغرب وانتقالها إلى مصر هو أهم الأحداث السياسية فى القرن الرابع البحرى حيث أمتد سلطانهم على معظم بلاد المغرب ومصر وبلاد الشام والجزيرة الفرانية وكان لهم دعاة منبثون فى كل صقع وناحية⁽³⁾.

(1) ناصر خسرو ، سفرنامه ص 77 ، 79 ، 91 ، 103 .

(2) قال البكرى، انها مرفأ لسفن الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس ومرساما منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركباً على طرفي المرسى (المغرب ص 30) .

(3) ابن النديم، الفهرست ص 189 .

(6) دولة المرابطين:

اقترن قيام دولة المرابطين في المغرب بتأسيس مدينة مراكش عاصمة لها فقد أصبحت مركزاً سياسياً ولعبت دورها في توجيه الأحداث السياسية، والظاهر من نظم المرابطين وتقاليدهم ورسومهم هي استمرار لما كانت عليه في الدول والإمارات التي فوض المرابطون أركانها، فلم يكن غريباً أن نرى المرابطين بعد تولى علي بن يوسف بن تاشفين يشيدون إمبراطورية كبرى تستند إلى أنظمة وقوانين، استطاعت أن تشرعها أو تستمدّها من شرائع كانت سائدة في المنطقة.

ونلاحظ بعد ظهور مراكش والمدن الأخرى التي أسسها المرابطون، بدأت تظهر صورة الحياة الاجتماعية المدينة، إذ تبدلت حياة أغلب القبائل التي كان معظمها منتقلاً إلى حياة مستقرة وذلك بعد أن وضع المرابطون الأساس لحركات إصلاحية بين القبائل والبطون وذلك بتشجيعها على الإقامة في المدن و الحواضر وبخاصة بعد أن تحولت حركتهم الدينية إلى حركة سياسية، كما عنى المرابطون بإدخال الإصلاحات والتعمير للمدن وبذلك فهم يقدمون صورة واضحة عن اهتماماتهم في الانتقال إلى أساليب جديدة في الحياة الاجتماعية والمدنية، فيشير ابن أبي زرع إلى احتلال يوسف بن تاشفين مدينة فاس فبادر إلى تحصينها وتهديم ما يفصل بين المدينتين بحيث جعلها مدينة واحدة ثم سورها وشرع في إبتناء المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها فإذا اكتشف زقاقاً لا يقوم فيه مسجد عاقب أهله، وبنى فيها الحمامات والفنادق والأرجاء وأصلح أسواقها⁽¹⁾.

لقد كان للمرابطين الفضل في قيام تجمعات عمرانية مهمة مثل مكناس وتلمسان ومراكش وبمرور الزمن اكتسبت أهمية اقتصادية كبيرة، حيث أصبحت مراكز تجارية تربط بلاد المغرب بالأندلس من جهة وبلاد المغرب والأندلس بالمشرق الإسلامي من جهة أخرى وكانت مدينة مراكش تضم عناصر مختلفة من القبائل المغربية والسودانيين الأندلسيين وقد ازدادت نفوسها في عهد علي بن يوسف بن

(1) الاتيس المطرب بروض القرطاس ص 91 ثم انظر: ابن خلدون ، العبرج(6) ص 380 . د. السيد عبد العزيز سالم ، المصدر السابق ص 701 .

تاشفين، حتى أن سليمان عبد الغنى مالكة لا يبالغ كثيراً في أن عدد سكانها قد بلغ نحو المليون⁽¹⁾ وعلى الرغم من أن قبائل صنهاجة وهم لمتونة وجدالة وسوفة ولمطة يشكلون الغالبية في عدد السكان ولكن العرب المشاركة تزايد وجودهم في هذا العهد حتى أقيمت لهم جامعة قوية في تلمسان تتحكم في الطريق إلى المغرب الأقصى، ومهما يكن من أمر فإن الاستقرار والازدهار الاقتصادي أدى إلى نمو سكان العاصمة مراكش حتى أنها احتوت على مائة قبيلة⁽²⁾ .

ومن المفيد أن نشير إلى انقسام مجتمع مدينة مراكش في عهد المرابطين إلى فئات ثلاث رئيسية، الفئة الأدنى التي انحصرت فيها السلطة وتتمثل في يوسف بن تاشفين وأولاده وأحفاده من بعده وقد تمتعت هذه الفئة بالرئاسة والسيادة ليس في مجتمع مدينة مراكش، بل في جميع المجتمع المغربي واستأثرت قبيلة لمتونة بالمناصب المهمة بالمدينة فاكسبوا الأموال وحازوا رقاب الرجال وكثروا في كل مكان وساعدتهم الوقت والزمان⁽³⁾ .

والفئة الأخرى تتمثل في "الكانة" التي نسميها المصادر "العامة" وهم من أهل المدن والحوضر. أما الفئة الثالثة فهي المتفرقة من القبائل الضاعنة والمتجولة في خارج المدن ومضارب البراري والصحراء.

وظهرت المرأة في الحياة الاجتماعية في دولة المرابطين، وكانت السيدة زينب زوجة يوسف بن تاشفين تتمتع بمكانة عظيمة وتشارك في شئون الدولة المختلفة كما برزت تميمة بنت يوسف بن تاشفين طالبة للعلم وحافظة للشعر وقد اتخذت الكتاب وظهرت أمامهم في غير حياء ولا خجل⁽⁴⁾ .

(1) بحثه الموسوم، بعض ملامح الحياة الاجتماعية في مدينة مراكش في عصر المرابطين والموحدين ، مجلة الدار / العدد الثالث / السنة الثامنة عشر 1986 / ص 176 .

(2) م . ن . ص 180 .

(3) م . ن . ص 177 نقلاً عن ابن عذارى، البيان المغرب ج 4 ص 25 .

(4) ابن عذارى، البيان ص 26 .

وكان المرابطون يعيرون اهتماماً بسبل الحياة لسكان المدن، بتوفير المياه اللازمة للشرب والدواب فاحتفروا الآبار وأنشأوا الصهاريج الكبيرة وعملوا السقايات واستغلوا مياه العيون كما شقوا الطرق وعبروها وبنوا القصور للأمراء وكبار رجال الدولة⁽¹⁾، إلى جانب ذلك فقد حرص المرابطون على عقد مجالس العلم يحضرها الأمراء والعلماء والأدباء ورجال الدولة، كما أوجدوا مجالس لبحث مشكلات الدولة والحياة الاجتماعية التي يواجهها الناس، وهناك أيضاً مجالس الوعظ والمجالس العامة التي كان يعقدها الأمراء وكبار رجال الدولة في قصورهم ويحضرها الأدباء والشعراء وكان للفقهاء والعلماء، المكانة الخاصة لدى أمراء المرابطين حيث جعلوا منهم فئة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة وأصبح لهم دور بارز في الحياة السياسية والاجتماعية العامة وسيطروا سيطرة تامة على مقاليد الأمور، وهذا يعكس صورة الحياة الاجتماعية لهذه الفئة المهمة في المجتمع المرابطي.

أما عناصر السكان من غير المسلمين في دولة المرابطين، فهناك جماعات متفرقة من النصاري واليهود في بلاد المغرب، وقد عاشوا في ظل التسامح الديني يباشرون أعمالهم المختلفة وخاصة في مجال التجارة والصناعة، والظاهر أن المرابطين لم يتعرضوا لهم ولطقوسهم وحررياتهم الدينية لسوء فيما عدا بعض الحالات التي أساء فيها هؤلاء تصرفاتهم فصب عليهم المرابطون جام غضبهم فعاقبهم واخذوا العهود منهم⁽²⁾.

إن الاهتمام الذي كان يوليه المرابطون في إصلاح أسواق المدن، يدل على تنشيطهم للحياة الاقتصادية ووضع الأساس لها، فقد وصف الأديسي مراكش في

⁽¹⁾ ولعل هناك بعض النسوة كن يرفعن الحجاب عن وجوههن في الطرقات العامة أو في الأسواق وقد ذكر النويري ما يشير إلى أن محمد بن تومرت .

⁽²⁾ كان علي بن يوسف بن تاشفين يتخذ بين حين وآخر إجراءات إخراج اليهود من مراكش لسيلا فيما يسمح لهم بالعمل بها نهارا وذلك لأنه كان يخشى أن يغدروا بالمسلمين (سليمان عبد الغني مالكة ، المصدر السابق ص 182) .

عهد المرابطين بان وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة⁽¹⁾ مما يوضح لنا النشاط التجاري في دولة المرابطين، كما قامت في المدن الجديدة التي أسسها المرابطون وكذلك في المدن التي وقعت في مناطق نفوذهم صناعات أصبحت بضائع تجارية ينقلها التجار إلى الآفاق وكانت الأعمال التجارية في مراكش قد انقسمت إلى قسمين، التجار الذين اختصوا بالتجارة الخارجية وكانوا يستوردون إن يصدرون إلى الدول والأقاليم المجاورة والبعيدة مختلف أنواع السلع والبضائع وتجار التجزئة الذين كانوا يبيعونه بضائعهم في متاجرهم وحوالياتهم وقد زادت أهمية التجار والتجارة باحتلال مراكش مكانتها في بلاد المغرب الأقصى⁽²⁾.

أما نقود المرابطين وسكتهم، فقد أكد ابن عذارى، انه في سنة 464 هـ، ضرب الأمير يوسف بن تاشفين، السكة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها، درهم وربع من الفضة سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية، وهو الدرهم الجوهري المعلوم في تلك الحقبة، كما ضرب أيضاً الدينار الذهبي باسم الأمير أبي بكر بن عمر وذلك في دار السكة في مدينة مراكش⁽³⁾.

وقد كانوا سعوا إلى هذا الإجراء حالما أتموا بناء مراكش وأقاموا دار السكة فضربت فيها دراهم فضية ودنانير ذهبية، يبدو إن المرابطين كانوا يبذلون محاولاتهم لكي يرفعوا من قيمة نقودهم فيزيدون وزنها وعيارها ويتجملون في حجمها لكي يجعلوها عملة مطلوبة تفرض وجودها وتضاهي العملات في البلاد الإسلامية الأخرى.

أما الروايات التي يسوقها بعض المؤرخين والكتاب التي تغزو سبب خروج المرابطين من الصحراء يرجع إلى عوامل اقتصادية تقوم على رغبة المرابطين في

(1) نزهة المشتاق ص 55 .

(2) وجد اسم تاجر من الأسكندرية مات في ميناء المرية الإدلسي سنة 519 هـ حيث كانت الإدلس تحت نفوذ المرابطين، وكان منقوشاً على احد قبور المدينة ما يدل على انه مات أثناء سفره وهو ينقل تجارة من الأقمشة الفاخرة ذات الشهرة العالمية (د.حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ج4 ص 409)

(3) البيان المغرب ج4 ص 131.

التحكم فى طرق التجارة الشمالية والتمتع بأراضي المغرب الخصبة، فإن أغلبها صحيحة إلى حد ما وذلك إلى جانب العوامل الأخرى وذلك على الرغم من أن الطريق التجاري الصحراوي الممتد بين اودغست جنوباً وسجلماسة شمالاً، كان طريقاً معروفاً منذ القديم، وكذلك كانت قبائل صنهاجة التى حملت راية المرابطين ودعوتهم تعيش فى مناطقها الصحراوية وتقاسى أهوال الجذب والقحط⁽¹⁾.

(7) دولة الموحدين:

قامت فكرة الموحدين لتأسيس دولتهم السياسية على مبدأ "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" ووجوب الاعتماد فى استقواء الأحكام على القرآن والسنة بإعتبارهما شريعة المجتمع دون غيرهما وموافقة آراء أبى الحسن الأشعرى "مذهب الاشعرية" سوى مسألة الصفات فأنهم وافقوا المعتزلة فى نفيها.

وضمن هذه التوجهات، فقد خالفوا المرابطين فى آرائهم لتولى أمر الحكم فى الدولة السياسية وتنظيماتها الإدارية والعسكرية، ولكنهم قطعاً قد أفادوا كثيراً مما كانت عليه الدول والإمارات السالفة عليهم فى بلاد المغرب من رسوم وقوانين وضعية مع التمسك بما يرون أحقيتهم فى الخلافة دون غيرهم من المسلمين لأنهم - على حذر عمهم - من أكثر المسلمين إيماناً وأصحبهم مذهباً، مما جعل علاقاتهم بالخلافة العباسية متردية لتجاوزهم على سلفتها الروحية التى تحكم العالم الإسلامى فضلاً عما عرفوا به من تنظيمات خاصة بهم، فقد رتبوا مؤسسة السلطة السياسية على شكل هرمي يبدأ بالقمة التى يمثلها أهل العشرة وفى مقدمتهم محمد بن تومرة ثم أهل الخمسين ويليهما أهل السبعين ثم المائة وآخرهم أهل الألف. وهذه الطبقات مؤلفة من رجال القبائل والعناصر والأقوام التى انضوت تحت سلطانهم وكان لهذا التأليف الهرمي فى السلطة شروط وقوانين وأحكام تحدده. وكان لأهل العشرة أو لأصحاب العشرة السلطة المطلقة فى تصريف شئون الدولة

(1) د. حسن إبراهيم حسن ، المصدر السابق ص 415 ، د. أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس ص 276، سليمان عبد الغنى مائكة، المصدر السابق ص 181.

والجيش والرعية، فمنهم الخلفاء والأمراء والقادة وأصحاب الدواوين وكبار الموظفين، ولم يكن للفقهاء والعلماء ذلك الدور البارز في رسم سياسة الدولة والسيطرة على مقدراتها ومقاليده الأمور فيها كما كان الحال عليه أيام دولة المرابطين.

شهدت مراكش في عهد الموحدين تقدماً، فقد اهتموا بها أقاموا فيها كثيراً من المنشآت وقصدها الناس من كل مكان حتى اكتظت المدينة بسكانها واضطر خلفاء الموحدين على توسيعها فضمت عناصر سكانية متباينة وفي مقدمتها القبائل المغربية الموالية وهي العناصر الغالبة في سكان المدينة، وكانت قبيلة المصاعدة التي قامت على أكتافها دولة الموحدين، تستأثر بالنفوذ الاجتماعي والسياسي في المدينة لأنها كانت من أكبر قبائل المغرب وقد احتلت مركز الصدارة في المغرب الأقصى وأصبحت لهم منزلة كبيرة لدى الموحدين ويأتي العرب المشاركة ليمثلوا العنصر الثاني من السكان، وقد بدأت صلة الموحدين بهؤلاء منذ عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي، حين أذاع بين الناس نسبة العربي⁽¹⁾. وقد حرص الموحدون على تشجيع هؤلاء للهجرة من أفريقيا إلى المغرب الأقصى فاستقر كثير منهم حول مراكش وشاركوا في الحياة الاجتماعية، كما كان بعضهم جنداً في جيش الموحدين فأقطعوهم بعض الأراضي وأنفقوا عليهم النفقات الواسعة⁽²⁾ وإلى جانب قبيلة المصاعدة وبعض القبائل الأخرى المساندة والعرب المشاركة، فهناك أجناس أخرى صغيرة من السودانيين والروم والصفالية إذا استخدم الموحدون منهم في جيوشهم، كما شاركت الجوارى السودانيات في الحياة الاجتماعية في مدينة مراكش حيث عرف عنهن مهارات في طهي الطعام وإعداده⁽³⁾، ومن العناصر الأخرى التي سكنت مراكش الأتراك الغز فانضم بعضهم إلى الجيش وصارت لهم الأعطيات والمرتبات الشهرية والاقطاعات⁽⁴⁾، وكان لقبيلة كومية أيضاً مكانها في المجتمع الموحدى، فقد تولى بعض أفرادها "الوزارة".

(1) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص 183 .

(2) ابن عذارى، المصدر السابق ص 152 .

(3) كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار ص 216 .

(4) ابن الأثير، الكامل ج 8 ص 296 .

نستخلص من ذلك أن الموحيدين استحدثوا من فئات السلطة الحاكمة ، مسلماً اجتماعياً جديداً ، أرسى قواعده محمد بن تومرت ، فقد اختص من استجاب لدعوته بـمكان الصدارة في الدولة فقد لقبائل هرغة وهنتاتة وجنفسية وهزرجة ووريقة وكوفية ، كثيراً من البر والكرم فضلاً عن العطاء المنظم ، وبذلك ظهر المجتمع في عهد الموحيدين في أربع عشرة فئة ، أولها أهل الجماعة وآخرها فئة "الغرات" وهم الموالي⁽¹⁾، وتتمتع هذه الفئات بحسب سلمها الاجتماعي بالامتيازات والاعطيات والمرتبات ، كما إن علماء الموحيدين كانت لهم منزلتهم اللانقة بهم وكذلك القضاة ورجال القضاء حيث كانت لهم كلمتهم المسموعة لدى الخلفاء والأمراء والقادة .

ولم يكتف الموحدون بما وجدوه في البلاد من القصور والمنشآت العامة بل زادوا عليها ومن أشهر قصورهم "قصر الحجر" الذي شيده علي بن يوسف بن تاشفين وقصر الخليفة عبد المؤمن بن علي كما شهدت مراكش إنشاء العديد من المساجد منها المسجد الكبير الذي أنشأه يوسف بن تاشفين والمسجد الجامع الذي أقامه عبد المؤمن بن علي والمعروف بـجامع "الكتبيين" وأسسوا كذلك المدارس التي ألحقت بالقصور لتخريج الحفاظ والقراء والمحدثين. وسعوا أيضاً إلى بناء البيمارستانات " المستشفيات " ومنها البيمارستان في مدينة مراكش الذي اشرف على تشييده عبد المؤمن بن علي وكذلك إقامة الحمامات العامة والفنادق والأسواق المسقفة.

أما الاحتفالات الدينية فمن أهم مناسباتها صلاة الجمعة والاحتفال بقدوم شهر رمضان والاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى وكذلك الاحتفالات والمهرجانات

⁽¹⁾ الموالي تعنى السادة أو العبيد على السواء والمقصود هنا العبيد أو الإماء (ويأتي بعد أهل الجماعة ، أهل الخمسين وأهل السبعين ومعهم الطلبة "وهم علماء الموحيدين" والحفاظ "وهم صغار الطلبة" ثم أهل الدار (أفراد البيت الموحدى)

ثم أهل هرغة (قبيلة محمد بن تومرت) ثم أهل تيمنل ثم قبيلة كدميوه او جديموه ثم أهل حنفسة وأهل حفاتة ثم تليها القبائل التي ناصرت الموحيدين في البداية وليست من قبيلة مصمودة ثم الجند وأهل العساكر (ابن عذارى ، البيان ص، 154 ، سليمان عبد الغنى مالكة ص 178) .

العسكرية التى كانت تتضمن استعراض الجند والساكر قبل الخروج إلى الحرب إضافة إلى الاحتفالات بالوفود والسفراء والمبعوثين ورسل الملوك والأمراء والقادة أو عند الانتهاء من تشييد أحد المساجد أو الجوامع أو القصور أو المدارس أو لدى العفو عن المسجونين والمحبوسين.

ومن المظاهر الاجتماعية ارتياد الناس للحدائق والمنتزهات ومنها "الحديقة الكبرى" التى أمر بإنشائها وغرسها الخليفة عبد المؤمن بن على والبستان الكبير بمراكش الذى كان خصيصاً للأمراء كما أقيمت وسط هذه المنتزهات البرك التى أشبه ما تكون بالمسابح فى الوقت الحاضر.

وعلى الرغم من إن خلفاء الموحدين وأمرائهم وبخاصة الأوائل منهم كانوا عزوفين عن متع الحياة ومباهجها مما يحول دون ممارسة الرعاية لها وخصوصاً فيما يتعلق بالغناء والموسيقى ولكن التأثيرات التى تركتها الأندلس فى هذا الجانب أصبحت مجالس الغناء والموسيقى والطرب تعقد فى قصور الحكام والأمراء.

ويولى الموحدون اهتمامهم بالنواحي الاقتصادية فقد تميزه مراكش فى عهدهم بنشاطها التجاري حيث أصبحت لا تقل شهرة عن المراكز التجارية الذائعة الصيت مثل القيروان وتاهرت وسجلماسة وأودغست وغيرها ويتوضح حجم هذا النشاط التجاري مما ورد عن كارثة الحريق الذى شب فى سوق مراكش سنة 607 هـ حيث ذهبت أموال جسيمة لا تحصى للتجار الواردين والقاطنين والقاصين والدانين وأدى إلى افتقار طبقة كبيرة من ذوى اليسار والثروة⁽¹⁾ وينقل ابن عذارى، إن الخراج بلغ فى عهد الموحدين مائة وخمسين بغلاً من أفريقيا وحدها عدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها وإن عبد المؤمن بن على وجه همه لتشجيع الزراعة وإصلاحها وتنظيم الحياة الاقتصادية يساعده فى ذلك اتساع رقعة دولة الموحدين واستتباب الأمن فيها واستقرار الحياة الاجتماعية وتشجيع التجارة والصناعة⁽²⁾ لذلك فإن الازدهار الإقتصادى الذى عرفته دولة الموحدين يجد موارده من الأندلس الغنية بثرواتها فضلاً عن بلاد المغربين الأوسط والأقصى.

(1) د. حسن إبراهيم حسن ج 4 ص 416، سليمان عبد الغنى ماله، المصدر السابق ص 181 .

(2) البيان المغرب، المصدر السابق ص 33.

لقد ضمت مراكش العديد من أصحاب الحرف والصناع الذين كونوا فيما بعد طوائف عدة وكان معظم هؤلاء الحرفيين قد استبقى الموحدون على حياتهم لدى دخولهم مراكش للاستيلاء عليها وانتزاعها من المرابطين اذ حرص عبد المؤمن بن علي على حياة الحاذقين والنابهين منهم لاحتياج الدولة اليهم⁽¹⁾ وخاصة فى إنتاج الأسلحة والبناء والتشييد ونشر الثقافة وغيرها من مظاهر العمران⁽²⁾.

(8) إمارة بنى مرين:

قامت دولة بنى مرين بعد الانهيار الذى منيت به دولة الموحيدين حيث فقدت نفوذها وسلطانها فى بلاد المغرب والأندلس فتمكنوا من مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية أعلنوا استقلالهم فيما كانوا يحكمونه ويديرونه من أملاك دولة الموحيدين المترامية الأطراف.

ويمكن القول أن قوانين الموحيدين ورسومهم ونظمهم وشرائعهم ظلت سارية المفعول فى دولة بنى مرين الذين يمثلون فى واقعهم ورثتهم السياسيين والإداريين فقد اتخذوا من مراكش عاصمة لهم بما يسرى فيها من تنظيمات سياسية وإدارية كان الموحدون أوجدوها ونحتوها لدولتهم وكانت البداية الحقيقية لبنى مرين كدولة سياسية وإدارية فى منطقة المغرب الأقصى وهى تلعب دورها المهم على نطاق المغرب الإسلامى فى عهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى سيطر على مراكش سنة 668 هـ ولما كانت الدولة المرينية قد بسطت سيطرتها من برقة شرقاً إلى منطقة السوس الأقصى والمحيط الأطلسى غرباً فلا بد لها أن تعتمد ما كان سائداً فى حكمها وإدارتها فى هذه المنطقة المتسعة الأرجاء وبخاصة فيما يتعلق بالدواوين وإدارة الجيوش والموظفين والعمال وأعطيتهم ومراتبهم والاقطاعات التى كانت تمنح لهم وكذلك بتعيين القضاة والجباة وتنظيم ادارة المدن والحوضر والحياة الاجتماعية ويزودنا ابن الأحمر بمعلومات مفيدة عن أحوالها الاجتماعية وذلك من خلال الحديث عن مدينة فاس فيشير إلى أن بنى مرين اهتموا

(1) سليمان عبد الغنى، المصدر السابق ص 182.

(2) د. حسن إبراهيم حسن ج 4 ص 417-418.

بفاس اهتماما خاصا واعتنوا بأمرها وبنوا مدينة ألحقت بها سميت "المدينة البيضاء" وعرفت "فاس الجديدة" اذ اتخذوها داراً للإدارة⁽¹⁾ وكانوا أقاموا أسوارها وجامعها وأسواقها⁽²⁾ واختط الناس فيها الدور والمنازل وأجريت فيها المياه إلى القصور وأقيمت القناطر بطرقاتها مثل قنطرة وادى البخار وقنطرة مرين⁽³⁾ كما ابنت في المدينة الجديدة الأسواق والحمام العظيم والقصور للوزراء وعمرت بالأسواق والمدارس والفنادق⁽⁴⁾ وأجريت إليها المياه عن طريق وادى الجواهر وغدير الحمص⁽⁵⁾ ووضعها ابن الخطيب "بأنها كالصباح أفق للغرر الصباح فيها منابت الروح المفترس ومجالس الحكم الفصل ودواوين الكتاب وخزائن محمولات الاقتاب وكراسى الحجاب وعنصر الأمر العجائب " ⁽⁶⁾ أما ابن زرع فيلقى ضوءاً مفيداً على المدينة الجديدة فاس فى عهد بنى مرين فيقول: "جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة وحسن الثمرة وسعة المحرث وبها منازل مونة وبساتين مشرقة ورياض مورقة وأسواق مرتبة منسقة وعيون منهمة وانهار متدفقة منحدره وأشجار ملتفة وجنات دائرة بها مجتمعة"⁽⁵⁾ وبذلك يشير هذا المؤرخ من طرف خفى إلى ازدهار الزراعة حيث تتخلل الأنهار ديارها وبساتينها وجناتها وشوارعها وأسواقها كما يذكر ابن الخطيب ما يدل على هذا الازدهار فيقول: " وقيدت طرف الناظر المفتون ادواح الشجر بها وغابات الزيتون زيتها يعصر وخيرها لا يقصر وفواكهها لا تحصى ولا تحصر " ⁽⁶⁾ كما إن هناك بعض الصناعات التى كانت تقوم على حطب البلوط والفحم وكذلك إقامة دور

⁽¹⁾ روضة النسرين فى دولة بنى مرين ص 19.

⁽²⁾ ابن أبى زرع، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ص 186، 187.

⁽³⁾ م. ن. ص 99.

⁽⁴⁾ ابن الأحمر، روضة النسرين ص 20 .

⁽⁵⁾ م. ن. ص 20 .

⁽⁶⁾ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص 112.

⁽⁵⁾ الذخيرة السنية ص 528، ثم انظر الجزائى، زهرة الأس فى بناء مدينة فاس ص 25، 26.

⁽⁶⁾ شاهدات ص 108.

لصناعة القوارب والسفن الصغار المعروفة (بالحبالات) ووجود بعض الصناعات المحلية التي كان يزاولها الصناع والحرفيون والأرجاء المنصوبة على الأنهار تطحن الحبوب ويخرج منها حمل أثقالها واقذارها ورماداتها⁽¹⁾.

وهكذا فإن عهد بنى مرين يعد استمرارا لما كان عليه عهد الموحدين فيما يتعلق بالأحوال الاقتصادية من تجارة وزراعة وصناعة وكذلك بما يختص بالأحوال الاجتماعية وعناصر السكان في المدن ومظاهر أحوالها والحياة العامة في الحواضر وبخاصة في مدينتي مراكش وفاس وأحوال القبائل وخططها ومساكنها.

والظاهر إن بنى مرين نقلوا كثيرا من مظاهر الحضارة الأندلسية إلى بلادهم وخصوصا ما يتعلق بمظاهر العمران والعناية بالزراعة ومتطلباتها فاستقبلوا الأندلسيين الماهرين والحاذقين والمهندسين والبنّاعين وذوى الخبرة في الصناعة، وكذلك العلماء والفقهاء والمدرسين وأصحاب الفن، وقد درجوا في ذلك على ما كان يقوم به الموحدون في هذه الجوانب.

⁽¹⁾ ابن زرع، المصدر السابق ص 529 .

المصادر والمراجع

- 1- المصادر الأولية.
- 2- المراجع الثانوية.
- 3- البحوث والأطراح.
- 4- المراجع الأجنبية.

المصادر والمراجع

أ-المصادر الأولية:

- ابن الأثير، عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت 630 هـ / 1232م)
- 1-الكامل فى التاريخ (بيروت - 1966)
- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى(ت 658 هـ / 1258م)
- 2-الحلة السيرة (القاهرة - 1963)
- البلاذرى، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279 هـ / 892م)
- 3-فتوح البلدان (القاهرة - 1956)
- البارونى، النفوسى سليمان بن عبد الله (ت 559 هـ / 1940م)
- 4-الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك ج 2 .
- 5 -مختصر تاريخ الإباضية (تونس - 1958)
- الجزرائى، أبو الحسن على (ت أواخر القرن الثامن الهجرى)
- 6-كتاب زهرة الأس فى بناء مدينة فاس (الجزائر - 1923)
- ابن حزم الأندلسى، على بن أحمد بن سعيد (ت 456 هـ / 1063 م)
- 7-جمهرة أنساب العرب (دار المعارف بمصر - 1962)
- ابن حوقل النصيبى، أبو القاسم محمد البغدادى الموصلى (ت367 هـ/977 م)
- 8-صورة الأرض (بيروت - 1938)
- الحميدى، أبو عبدالله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبدالله الأزوى (ت488هـ/1892 م)
- 9-جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس (القاهرة - 1966 م)
- الحميرى، أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجى (ت القرن التاسع الهجرى)
- 10-صفة جزيرة الأندلس (قطعة من الروض المعطار فى خبر الأقطار (القاهرة1937)
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ / 1405 م)

- 11- العبر وديوان المبتدأ والخبر 0مصر - بولاق 7 أجزاء)
- ابن خلكان، أبو العباسي شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681 هـ / 1282م)
- 12- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (مصر - 1310هـ)
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (توفي في حدود 300 هـ)
- 13- المالك والممالك (باعتناء دي غريه (بريل، ليدن - 1889م)
- الدرجيني، أبو العباس أحمد (ت منتصف القرن السابع الهجري)
- 14- طبقات الاباضية (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 خ)
- الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري (ت 690 هـ / 1296 م)
- 15- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (تونس - 1230 هـ)
- الرقيق القيرواني، إبراهيم بن القاسم (توفي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري)
- 16- تاريخ أفريقيا والمغرب (تونس - 1988)
- أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر (ت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري)
- 17- السيرة وأخبار الأئمة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 19030 خ)
- السلوى، أحمد بن خالد الناصري (ت 1319 هـ / 1901 م)
- 18- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء - 1954)
- الشماخي، احمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ / 1521 م)
- 19- السير (القاهرة - الطبعة الحجرية)
- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت 873 هـ / 1468 م)
- 20- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق بالمالك (باريس - 1894م)
- الأصطخري، أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت 341 هـ / 952 م)
- 21- مالك الممالك (القاهرة - 1961)
- ابن الصغير المالكي (ت نهاية القرن الثالث الهجري)
- 22- أخبار الأئمة الرسميين (باريس - 1958)
- أبو عبيدة، مسلم بن أبي كريمة (ت أواخر القرن الثاني الهجري)
- 23- رسالة في أحكام الزكاة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 21582ت)

- أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ / 1094م)
- 24-المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب (الطبعة الأوروبية -1857 م)
- عبد الله بن أبى عبد الله المالكى (ت نهاية القرن الرابع الهجرى)
- 25-رياض لنفوس فى طبقات القيروان وأفريقية (القاهرة-1951)
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري (ت 276 هـ/889م)
- 26-فتوح مصر والمغرب (القاهرة - 1961)
- 27-فتوح أفريقية والأندلس (الجزائر - 1947)
- فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت 742 هـ / 1341م)
- 28-مالك الأبصار فى ممالك الأمصار(نشر أحمد زكى باشا)(القاهرة/ 1924)
- أبو الفداء، اسماعيل بن على بن عماد الدين صاحب حماة (ت 732 هـ/1331 م)
- 29-المختصر فى أخبار البشر (القاهرة - 1325م)
- 30-تقويم البلدان (طبعة باريس - 1840)
- القزوينى، أبو عبد الله زكريا الأنصارى (ت 628 هـ / 1230م)
- 31-آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر دار بيروت - 1960)
- لسان الدين بن الخطيب محمد (ت 940 هـ / 1533 م)
- 32-أعمال الأعلام، القسم 3 (دار الكتاب، الدار البيضاء - 1964)
- مجهول (من أهل القرن الثالث الهجرى)
- 33-أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها (مدريد - 1867م)
- مجهول (من أهل القرن السادس الهجرى)
- 34-الإستبصار فى عجائب الأمصار (الأسكندرية - 1958)
- محمد بن احمد بن تميم العرب (ت 333 هـ / 944م)
- 35-طبقات علماء أفريقية (باريس - 1915)
- محي الدين عبد الواحد بن على المراكشى (ت 647 هـ / 1247م)
- 36-المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (القاهرة - 1949)
- المقرى، احمد بن محمد (ت 1041 هـ / 1623م)

- 37-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (القاهرة - 1949)
- المقدسى البشارى، محمد بن احمد (ت 375 هـ / 985 م)
- 38-أحسن التقايم فى معرفة الأقاليم (لیدن - 1907)
- النعمان، أبو حنيفة المغربي (ت 636 هـ / 973 م)
- 39-رسالة افتتاح الدعوة وابتداء الدولة (بيروت - 1970)
- الوسيانى، أبو الربيع عبد السلام (ت 471 هـ /)
- 40-سيرة أبى الربيع بن عبد السلام (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 911م)
- اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت 284 هـ / 897 م)
- 41-كتاب البلدان (لیدن- 1891م)
- 42-التاريخ (النجف - 1358 هـ)
- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومى البغدادى (ت 626 هـ / 1228م)
- 43-حجم البلدان (بيروت - 1957)

مصادر مضافة أخرى:

- ابن أبى دينار، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم (ت 1092 هـ / 1681م)
- 44-المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس (المكتبة العتيقة ، تونس - 1967)
- الأدريسى، الشريف أبو عبد الله محمد (ت 558 هـ / 1162م)
- 45-صفة المغرب وارض السودان ومصر (قطعة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق- لیدن - 1894م)
- ابن ايبك الداودارى، أبو بكر بن عبد الله (ت حوالي 736هـ / 1335م)
- 46-الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية (كتاب كنز الدور وجامع الغرر
القاهرة - 1972)
- ابن عذارى المراكشى، أبو عبد الله محمد (ت 695هـ / 1295م)
- 47-البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب (أربعة أجزاء)
- الأول والثانى تحقيق خ.س كولان وليفى بروفنسال-دار الثقافة- بيروت- 1929

ب-المراجع الثانوية:

اسماعيل أحمد

48-نبذة فى تاريخ الصحراء القصوى (باريس - 1911)

د. إحسان عباس

49-العرب فى صقلية (القاهرة - 1959)

آدم مترز Adam Mitiz

50-الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى(مجلدان: ترجمة

الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة وبيروت - 1967)

الدكتور حسن إبراهيم حسن

51-تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ج3 (القاهرة - 1965)

52-تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة - 1958)

الدكتور حسن احمد محمود واحمد إبراهيم الشريف

53-العالم الإسلامى فى العصر العباسى (دار الفكر العربى-1977)

54-قيام دولة المرابطين (القاهرة-1957)

حسن حسنى عبد الوهاب

55-ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية (3 أجزاء تونس-1965،

1966)

الدكتور الحبيب الجنحاني

56-المغرب الإسلامى (تونس - 1976)

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

57-المغرب الكبير ج2 (العصر الإسلامى) القاهرة-1966)

عثمان الكعاك

58-مراكز الثقافة فى المغرب (القاهرة - 1958)

الدكتور محمود اسماعيل

59-الخوارج في المغرب الإسلامي (بيروت-1976)

الدكتور محمد حمدي المنياوي

60-الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (القاهرة-1970)

الدكتور موسى لقبال

61-دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية (الجزائر-1979)

الدكتور محمد علي دبوز

62-تاريخ المغرب الكبير (القاهرة-1943)

فاسيلي بارتولد .W. Barthold

63-تاريخ الحضارة الإسلامية (دار المعارف مصر - 1958)

ليفى بروفنسال Leve-Provencal

64-الإسلام في المغرب والأندلس (القاهرة-1958)

ج-البحوث والأطوار:

بحاز إبراهيم بكير "أطروحاته للماجستير المرسومة"الدولة الرستمية"

(جامعة بغداد-1983) .

د.سوادي عبد محمد، بحثه " اباضية البصرة وتأثيراتها الفكرية والسياسية في

اباضية المغرب في القرن الثاني الهجرى/ مجلة

كلية التربية / العدد 8 / جامعة البصرة-1982".

وبحثه " تأثر الفكر الأندلسي بالحركة العلمية في المشرق

الإسلامى مجلة عالم الفكر/ المجلد الثالث عشر/

العدد الثانى/ دولة الكويت-1982

د.سليمان عبد الغنى مالكة، بحثه " بعض ملامح الحياة الاجتماعية فى مدينة

مراكش فى عصر المرابطين والموحدين / مجلة

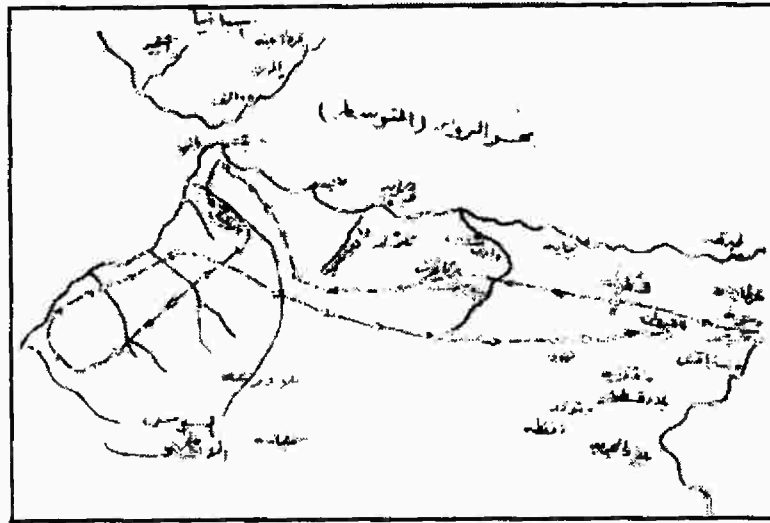
الدائرة العدد الثالث / السنة الثانية عشرة المملكة

العربية السعودية - 1986.

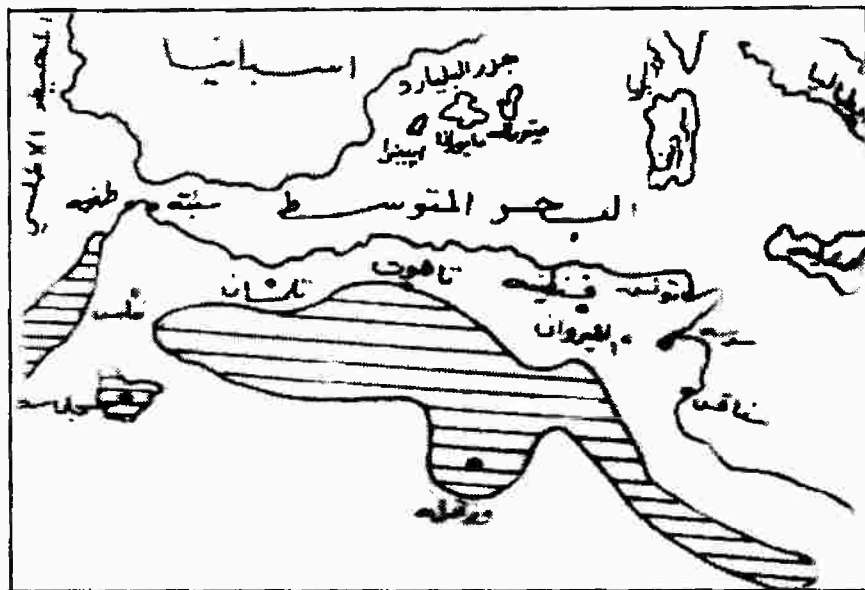
1. Andre Julien, Historie De A Frique du Nord (Paris-1951)
2. Farhy, Dr.A.Persian dansty in North Aerica, The Rustamides, The Islamic Review (England- 1962)
3. Hopkins Mediveal Moslem government in Barbary untilc the 6th cetury of Hijra (London,1958)
4. Heyed, W. Hostoire du commerce du levant au Mogen-Age (
5. Marcais, La, Berberie Musulmane et orient au Mogen-age (Paris, 1946)
6. Lewcki, melanges Berberes Ibadites Revue Des et udes Islamiques Annce cahier (Paris-1930).
7. Prescott, History of Ferdinand and Isabella the catholic (London sonnenechein)
8. Terasse, Historie du Moroco, des oriyines A, Letablissenient du protectoral Francais (casablanca-1949).

الخرائط والمصورات والمخططات

- 1- مخطط حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى**
- 2- خريطة الإمارة الرستمية**
- 3- خريطة إمارة الأغالبة**
- 4- خريطة إمارة الأدارسة**
- 5- خريطة الدولة الفاطمية**

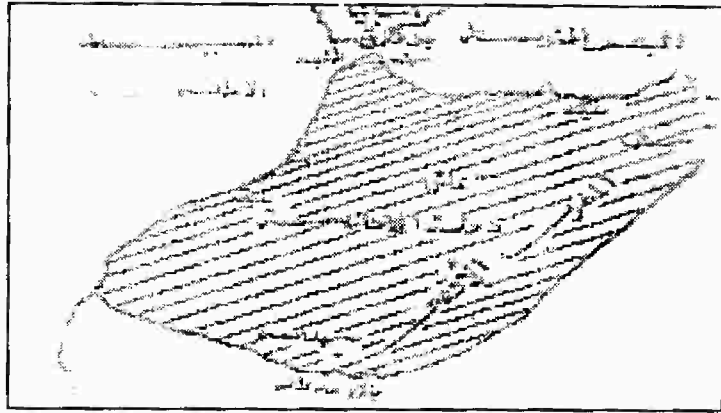


مخطط حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى



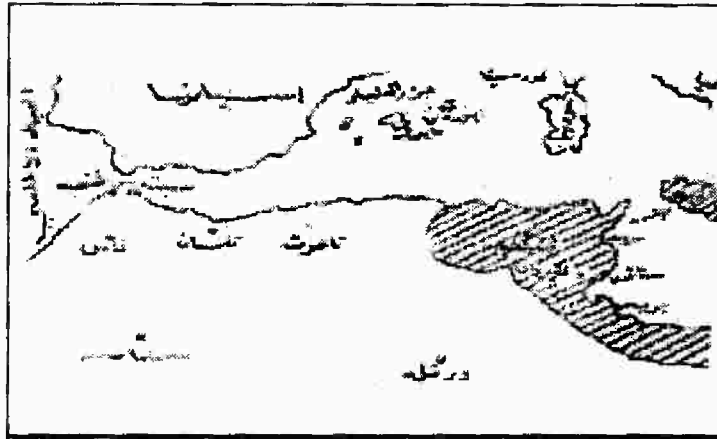
الإمارة الرسومية

(نقلًا عن الموسوعة العسكرية ج 2 ط 1 بيروت 1979)



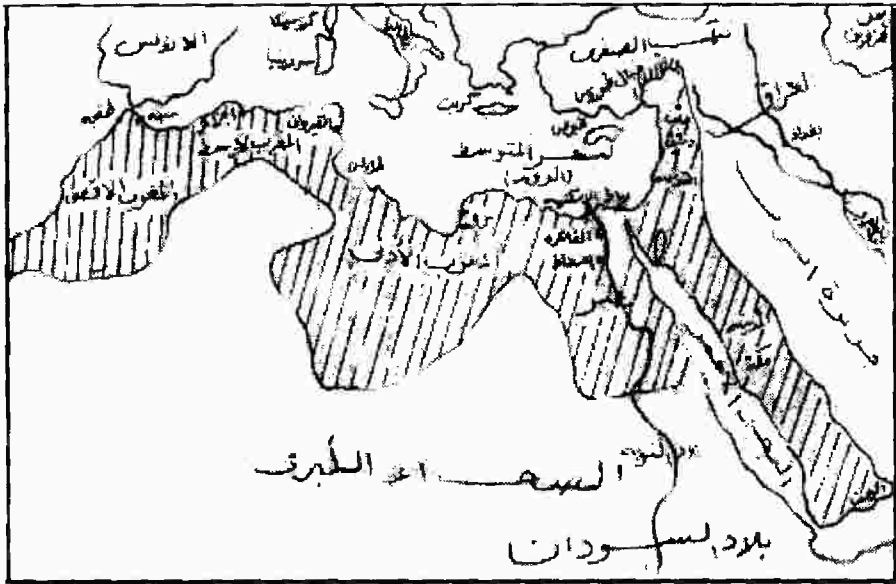
الحدود القصوى لإمارة الأدارسة

(نقلًا عن الموسوعة العسكرية ج 2 ط 1، بيروت-1975)



الحدود القصوى لإمارة الأغلبية

(نقلًا عن الموسوعة العسكرية ج 2 ط 1، بيروت-1979)



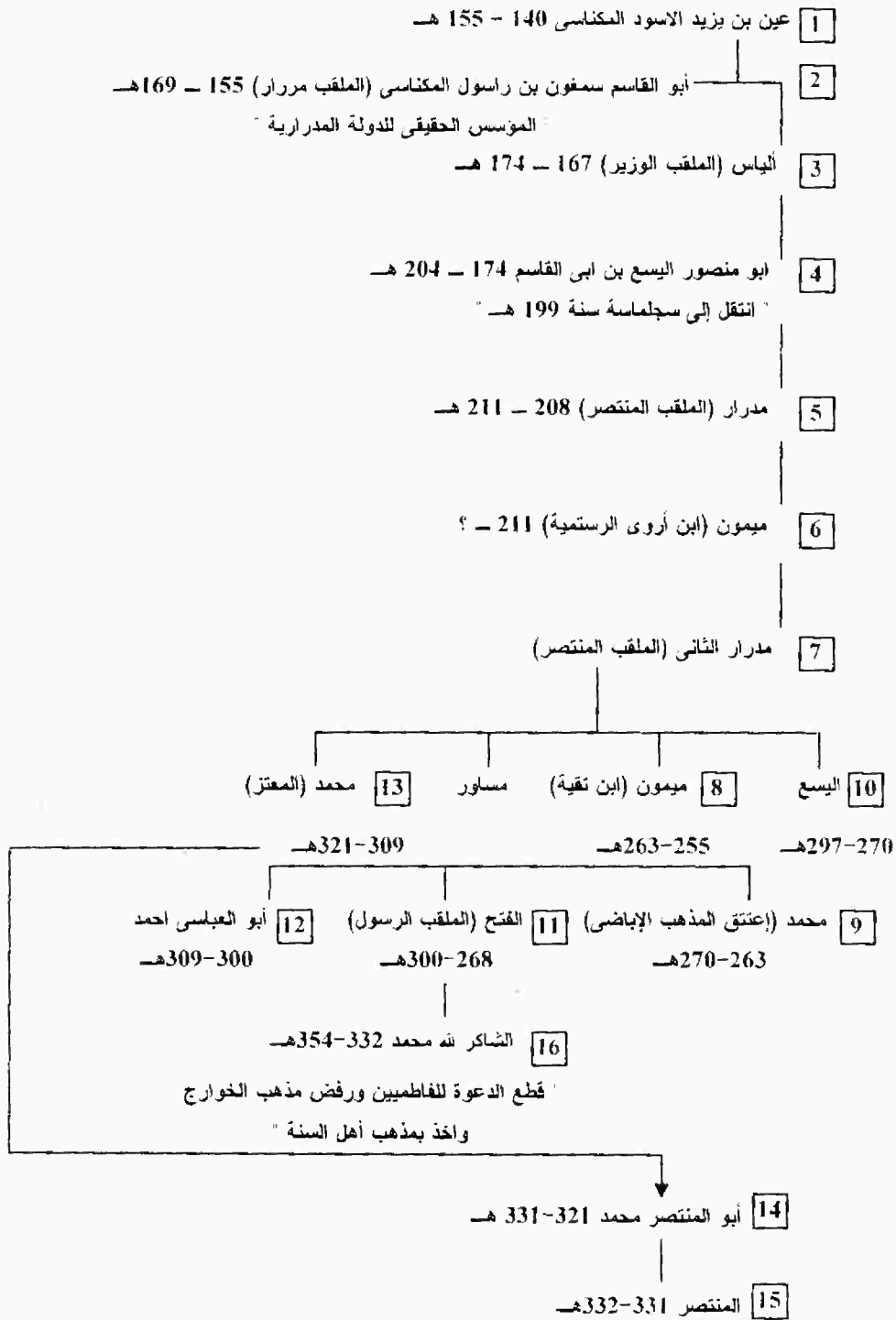
حدود الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها

(نقلًا عن الموسوعة العسكرية ج 2 ط 1، بيروت - 1979)

شجرات النسب والسلالات الحاكمة

1. بنو مدرار 140-354هـ/757-965م
2. الرستميون 144-283هـ/761-947م
3. الأدارسة 172-375هـ/
4. الأغالبة 184-296هـ/
5. الفاطميون 297-541هـ/909-1171م
6. المرابطون 448-541هـ/1056-1147م
7. الموحدون 524-667هـ/

بنو مدرار 140-354هـ/757-965م



1 عبد الرحمن بن رستم 144-171هـ
مؤسس الدولة الرستمية وباني مدينة ناهرت، برقع سنة 160 هـ

ابو الخطاب عبد الاعلى بن سنج المصافري البسني
140-144 هـ (سقطه العباسيون فلم تقم دولته)

2 عبد الوهاب 171-211هـ

3 افلح 211-240هـ

4 ابو اليقظان محمد 240-281 هـ

5 ابو حاتم يوسف 281-294هـ

6 أبو اليقظان بن أبي اليقظان 294-294 هـ

فترة حكم الفاطميون الدولة الرستمية 294-316 هـ

7 أبو اليزيد (صاحب الحمار، وهو إباضي نكاري قادم
النفوذ الفاطمي ودعى للأمويين الأندلس)

الادارسة 172 - 375هـ

1 إدريس بن الله الحسن

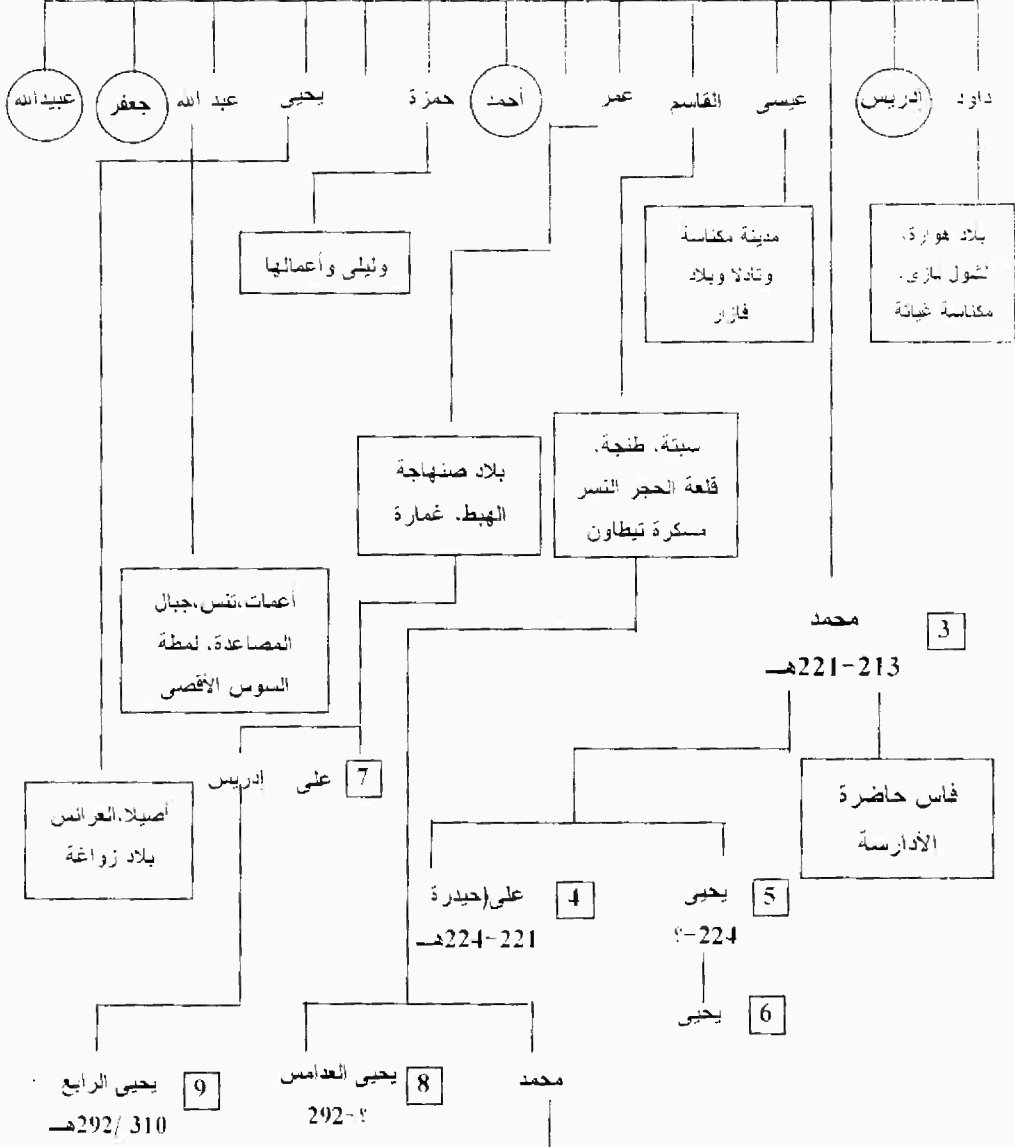
172-177 هـ مؤسس إمارة الادارسة

إدريس بن إدريس (إدريس الثاني) 186-213 هـ

2 فترة 14 سنة بين ولادة إدريس الثاني وتولييه الإمارة

كان إدريس وجعفر وأحمد عبيدالله بكفالة جدتهم كنزة اصغر

اعمارهم فلم يحكموا

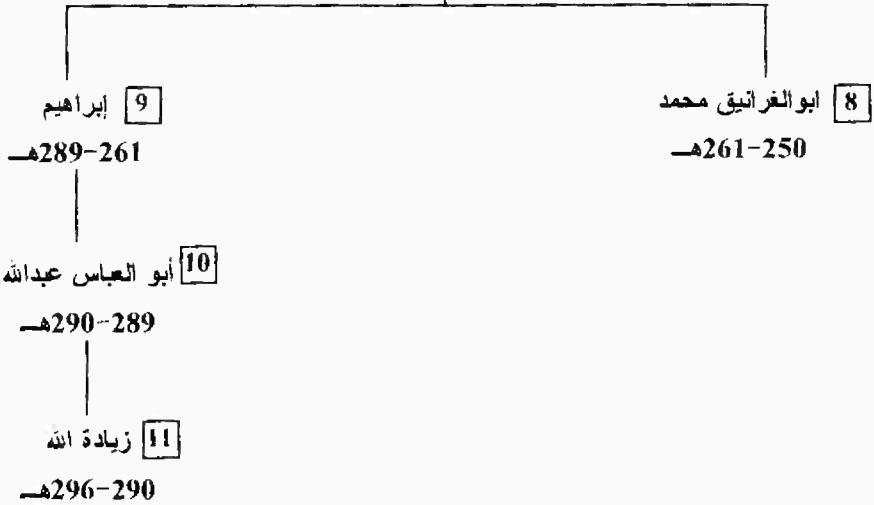
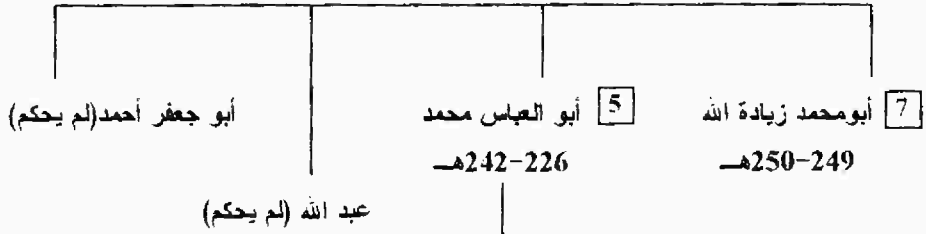
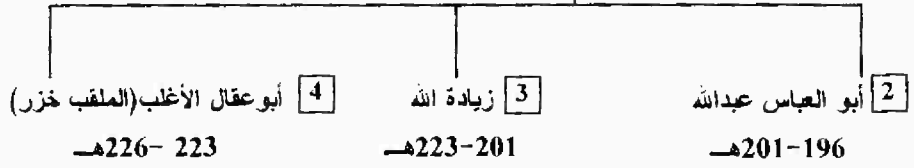


10 الحسن الحجام 310-312 هـ

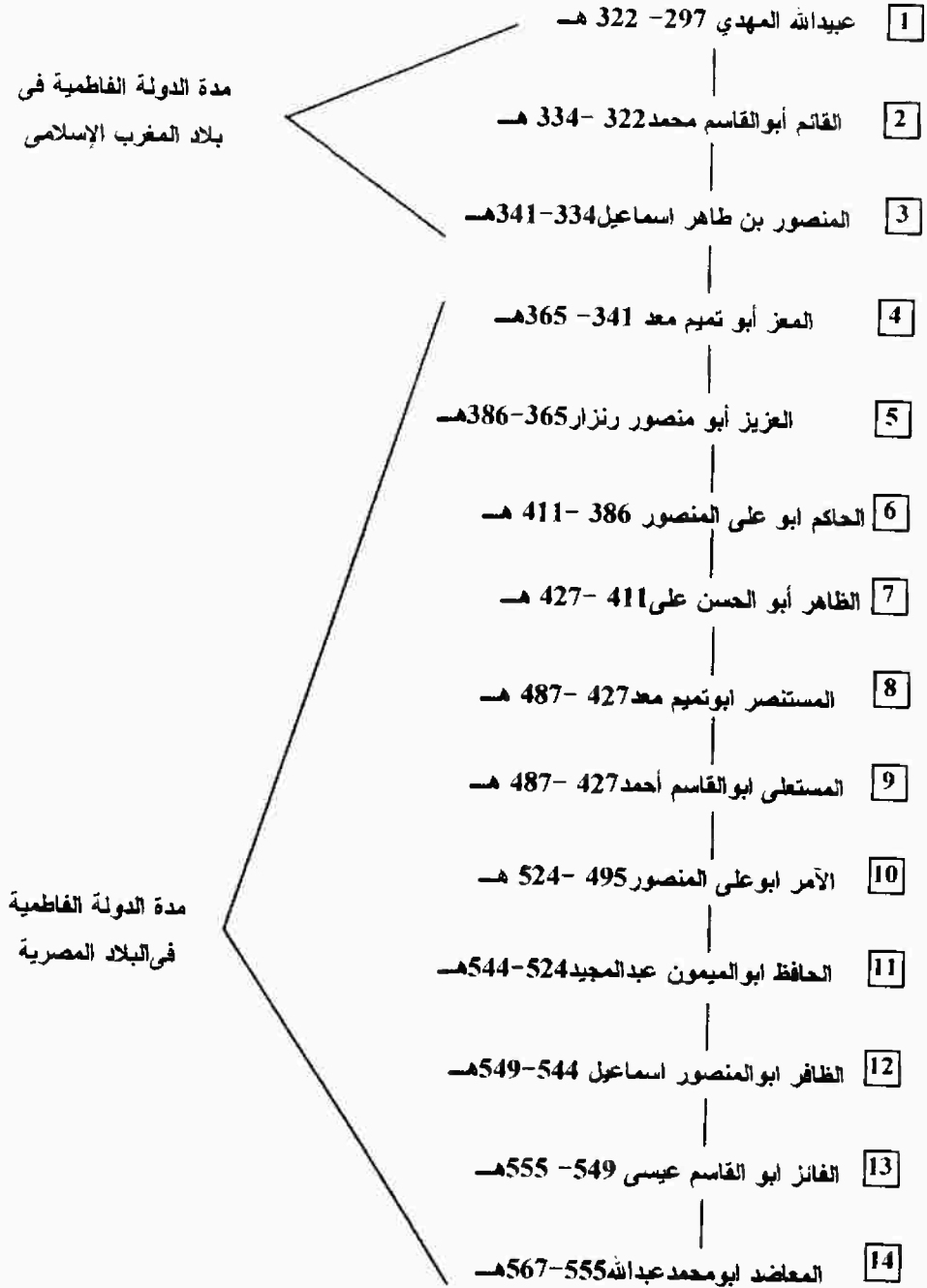
375-312 هـ (حكم بعده موسى بن أبي العافية باسم الفاطميين ثم عدل فحكمها باسم أمويي الأندلس)

الأغالبة 184-296هـ

[1] إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي 184-196 هـ
 "مؤسس إمارة الأغالبة في مدينة القيروان"



الفاطميون 297-541هـ / 909-1171م

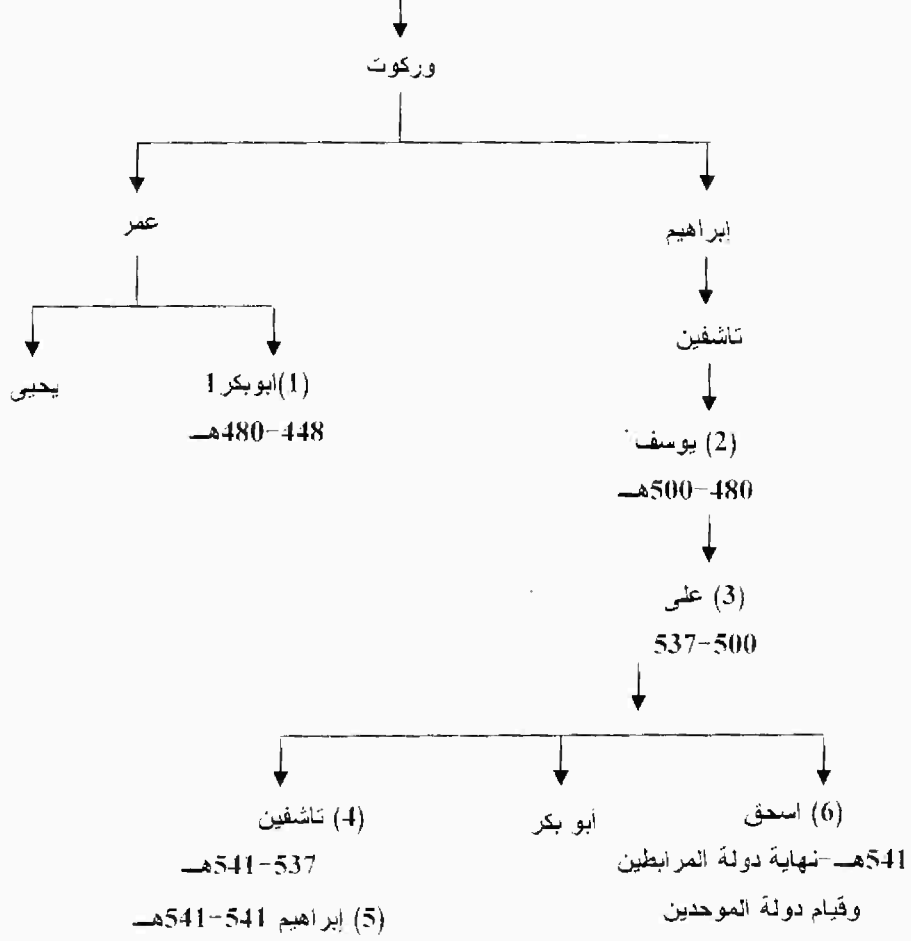


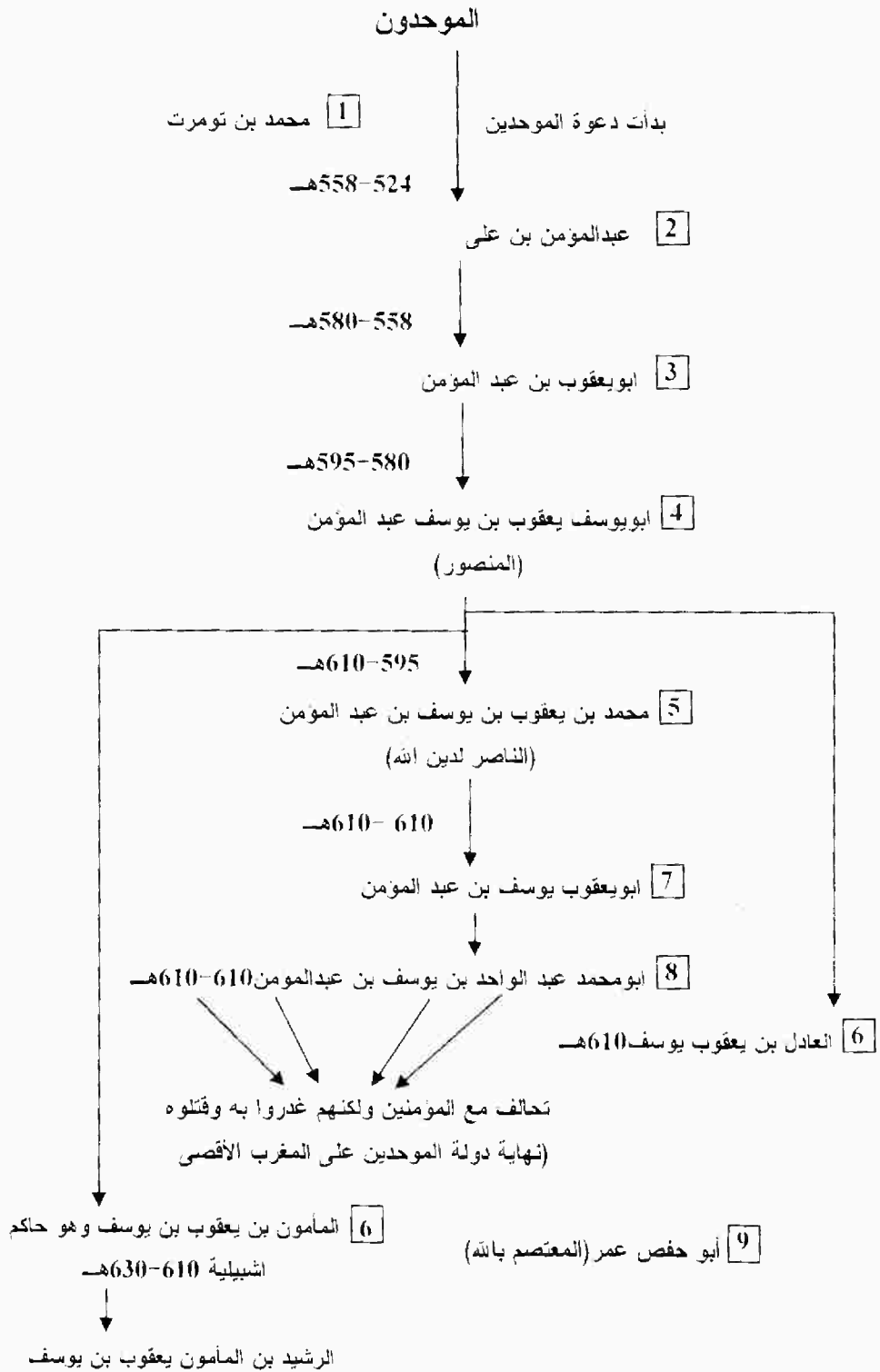
567 هـ نهاية الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي

المرابطون

448-541هـ/1056-1147م

(شملت المغرب الأقصى وجزء من الجزائر والأندلس ورتنتك)





قبائل المغرب الإسلامي

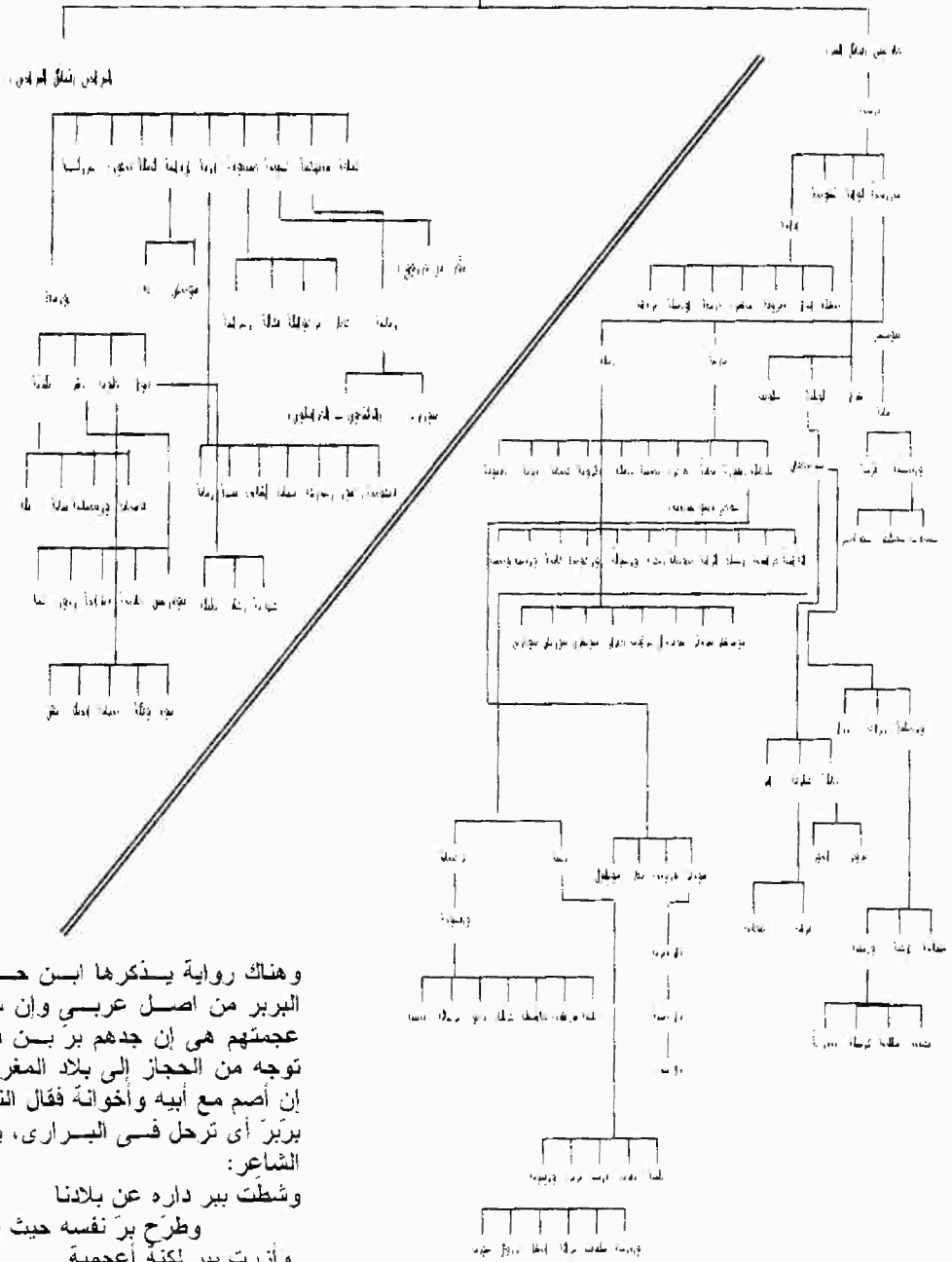
1- تقسيم ابن خلدون "التقسيم الإجتماعي المدني"

" كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر) "

2- تقسيم ابن حزم الأندلسي "التقسيم العام"

" كتابه (أنساب العرب) "

بربن قیس عیلات بن ماتیع بن کنعان بن حام



وهناك رواية يذكروها ابن حزم إن
البربر من أصل عربي وإن سبب
عجمتهم هي إن جددهم بر بن قيس
توجه من الحجاز إلى بلاد المغرب بعد
إن أصم مع أبيه وأخواته فقال الناس:
بربر أي ترحل فسي البراري، يقول
الشاعر:

وشطت ببر داره عن بلادنا
وطرح بر نفسه حيث يحيا
وأزرت ببر لكنة أعجمية
وما كان بر في الحجاز بأعما
(أنساب العرب من 448)

تقسيم ابن حزم الأندلسي "أنساب العرب"

الملاحق

- 1- الملحق الأول "كتاب الخليفة العباسي، المستظهر بالله إلى معز الدولة".
- 2- الملحق الثاني "بنو عبد الحق".
- 3- الملحق الثالث "كتاب المعتمد بالله يستصرخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين"
- 4- الملحق الرابع "كتاب أبي يعقوب يوسف بن تاشفين إلى أبي القاسم ابن عباد".
- 5- الملحق الخامس "من وثائق الموحدين".

الملاحق

الملحق الأول

كتاب الخليفة العباسي المستظهر بالله، إلى معز الدولة العباسية وزعيم جيوشها المغربية على يد يوسف بن تاشفين احسن الله توفيق:
أما بعد:

فالحمد لله مقدم على كل مقال، ونال كل فعال، وهو ذو المن والأفضال الكبير المتعال، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المويد بالتنزيل الذي كشف عن الأمة الغمة واستنقذ من الظلالة الأمة، وحمل به من المحارم ما كان مباحاً واقتراح به من القلوب زناداً اورى بعدما كان شحاحاً وأليس الدين بعدما كان بالعراء من البسيطة جناحاً وعلى أزواجه وذريته ما عقب مساء صباحاً وخص العباس بن عبد المطلب عم النبوة ووارث الخلافة وشقيق الأبوة الميمون الظاهر الطاهر الأوائل والأواخر بالصلاة المستهلة العباد، المتصلة الإمداد ومواهب الله على أمير المؤمنين حبانس ومناحه لديه كوامل نفائس وجناب الإسلام مريع وباع الحق وسيع ورياض العدل اريضة وعيون الحق عريضة ونظرة للرعايا على ما تقتضيه قصدها ومرادها ويقل عنهم شبا الأيام إذا رهف حدها والنصر لراتبه ألف والظفر لجيوشه حلف، وأعدائه للسيوف حصائد وللحقوف طراند - وشكره الله تعالى ما ولاد شكر مؤذن بالمزيد وشاهد بصنع لا يبيد.

وعرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك، الموضح الإخلاص، السرية المطبوعة بطباع الدين، المعربة عن تمسك بطاعته بحب الله المتين، الهائلة سحائبها من سماء سيرتك، المضينة مصابيحها من إخلاص طريقتك وأما ما نهيته من توفير الأجناد ومثابرتك على الجهاد ولدفع ادناس الكفرة فيما يليك من البلاد فانك وطائفك من حزب الله (وحزب الله هم الغالبون) فاتخذ التقوى عما ذلك والحق منارك وكتاب الله وسنة رسوله شعارك وتجرد للدفاع عن الإسلام والمسلمين وحطم معارك في نحور أعداء الله الكافرين وأعلن بالدعاة لأمير المؤمنين على المنابر، تكن الظافر بالأعداء والظاهر، والسلام عليك وعلى من قبلك من أهل

الطاعة سلام يهديكم إلى المقام المحمود ويكتفكم بظل الرحمة الممدودة ورحمة الله وبركاته.

"نقلا عن كتاب: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثاني عشر الهجري (تحقيق د. سهيل زكار والأستاذ عبد القادر رزامه/ دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء - الطبعة الأولى 1979 / ص 87-88)

المحلق الثاني

"بنو عبد الحق"

منهم من درج ومنهم من عز وخلف

قال الفقيه الكاتب أبو علي الملياني: يرجع نسبهم إلى بنى مرين، وبنو ملاين يرجعون إلى زناته وزناته من أولاد جنان يحيى بن ضريس بن زحيك ابن عتلان، وقد كان جماعة من العلماء ممن له اعتناء بهذا الشأن ينسبونهم لبر بن قيس المذكور واجاز كتابه انهم عرب صرحاء وانما تبربروا بالمجاورة والمخالطة للبربر قال ابن رشيق : ان البربر باجمعهم من ولد جالوت، الا قبيلتي صنهاجة وزناته فانهما ينتسبان الى حمير .

أصل بنى مرين من أحواز تلمسان، قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناته على قديم الزمان - وكان وطنهم ما بينها وبين تاهرت من شرقها يجاورهم فى السكنى من زناته بنو يغمراس وبنو تجين وبنو مغراوة وبنو راشد، وغيرهم وكان غالبهم الفرسان.

قال ابن رشيق: اصل زناته من الشام وكانت دارهم بفلسطين وملكها جالوت فلما قتله داود عليه السلام جاءت البربر الى المغرب فانتشروا الى السوس الأقصى- وقد وقع ذكر البرابر فاشير الى طرف من أصول أنسابهم من جهة زناته وغيرها على جهة الانتصار.

وأعياض البربر هم: هواره ومغلية وضرية ومغراوة وبنو يفرن وبنو مريع وسدداته ومسطاسة وملزوزة ونفرة وبنو غجدامة ولهاصة ولواته ومديونه ومظمطة وكتامة ومزاته ولمطة ومديونة وعجيسة ومكناسة وزواوة وصدفورة

وزهيلة ومسادة وزواجة ومغرة ومصمودة وغمارة وبنوزروال وبنو سعيد وبنو
سنجوم وبنو يازين وبنو خالد وبنو مرموشة وبنو شراحيل وبنو رتجين ولماية
وغير هؤلاء هم بطون كثيرة وتفرعوا تفريقاً عريضاً، ليس هذا الموضوع محل
بسط القول، وتقصى الأنباء، إنما بنى فيه على الاختصار واطراح التطويل.

"تقلاً عن كتاب: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية المؤلف أندلسي
مجهول من أهل القرن الثاني عشر الهجري / ص 185-186).

الملحق الثالث

كتاب المعتمد بن عباد يستصرخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، فمن
إنشائه وخطه ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً

إلى حضرة الإمام، أمير المسلمين وناصر الدين محي دعوة الخليفة الإمام أمير
المسلمين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين.

من القائم بعظيم إكبارها الشاكر لإجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها
اللائذ مجرمها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد بن عباد.

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية المعظمة السامية ورحمة الله وبركاته.
وكتب المنقطع إلى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الأولى سنة تسع
وسبعين وأربعمائة وأنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، إنا نحن العرب في
هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من
معيننا، نصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقل ناصرنا وكثر
شامتنا وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين ادفنش وأناخ علينا بكلكله ووطننا
بقدمه واسر المسلمين واخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس
ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاعوا لفعلوا، إلا أن الهواء
منهم عن ذلك، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال - وأنت أيدك الله ملك المغرب

ليبطه وسوءه وسيد حمير ومنكها الأكبر وميرمه ورعهمها وترعت بهمني إليست
واستنصرته بالله ثم بك واستغفرت بحرمكم لتجوزي في الجهاد هذا العدو الكافر وتهدوي
تسريعا إليهم والديون كن دين مستمد عليا الصلوة والسلام والله يستألف عيسى له
القول الكريم والجر الجود ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والسلام
الكريم علي حضراتكم السامية ورحمة الله وبركاته

الملحق الرابع

كتاب أبي يعقوب يوسف بن تاشفين إلى أبي القاسم بن عبد
بسم الله الرحمن الرحيم وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم
تسليما

من أمير المسلمين وناصر الدين محيي دعوة دين المؤمنين إلى الأمير الأكبر
ثمويذ بنصر الله المعتمد علي الله أبي القاسم بن القاسم إمام الله خير أمته بتقواه
ووفقه لما يرصده.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابكم المكرم. فوقفنا علي ما تضمنه من استدعاء لتصرتك ومنا
ذكرته من كبريتك وما كان من قلته حمابة جيراتك فتحن بمين لشمالك ومباندرون
لتصرتك وحمابتك ووجب علينا ذلك من الصرع - وكتاب الله تعالى وإنه لا يكتسب
الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا نكي يكون جوازنا إليست علي
أيدينا متى شئنا فإن رأيت ذلك فأشهد به علي نفسك وإبعث إلينا بعقودها ونحن في
أثر خطابك إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نقلا عن كتاب: الحل الموشية في الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي مجهول
من أهل القرن الثاني عشر الهجري .

المبحث الخامس

من وثائق المرحومين

رسالة الخليفة الموحدي المرحوم لأمير الله أبي البلبا أنوسنت الرابع النوصان
تاريخ مؤرخه في 48 هـ 249 م

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله وحسده
من عبد الله عمر أمير المؤمنين بن سيدنا الأسير إبراهيم أمير المؤمنين أيدهم الله
تعالى بنصروه وأمددهم بمعونته التي استطاع بواسطتها النصرانية ومعظم عظمساء الأمة
الرومية وقيم الأمة المسيحية بوزرته وبنائتها الدينية البلبا (أله ستس اش) أبارك
الله تعالى بغيرته بتوحيده ورسالته وجعل التقوى التي أمر عز وجل بها عباده
محبية ومعاده وأدله من طريق الهداية ما يقضي أمدن الغاية بساتم الفساحة
والمستند بحية كريمة تراجع بها ما تقدم من تحياتكم الواردة علينا وبترجم تكسم
أرسلها عما تعتمدكم به البار لدينا.

أما بعد فإننا نحمد الله الذي لا اله الا هو حمد من علم انه الرب الواحد الذي
دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد، ونزهته العقول الراجحة عن ان
يكون له ولد أو يدعى انه الوالد تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمثسبه
والجاهد، ونصلى على سيدنا محمد ورسوله المصطفى الكريم الذي وضحت به
لتنجاة المذاهب والمقاصد وخرقت له بالظهور المعجزات الباهرة على يديه العوايد
ونصر بالرغب فالقى له يد الاستلام كل من كان ينادى ويعاند وعلى آله وصحبه
الكرام الذين ازدادت بهم المحاضر والمشاهد ووصلت صوارمهم فسى مواقف
الحروب السواعد وأنجزت لهم فى استيلاء الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها
المواعد ونسئل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم الذى
جذبه لدين الله تعالى الشباب المعاهد وأهلت بهديته بعد إقفارها المعاهد وبسأى
بالخسران المخاتل لأمره والمكايد وعن الخلفاء الراشدين المهتدين الذين تولى فهم

إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد وعلت بهم لأمر الله تعالى المراقى والمصاعد وعن سيدنا الأمير الطاهر أبى إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذى طابت منه العناصر و المماتد واشتق من نبيه الخلافة من أوراق نضارة وعفواره فنتها الماند، وزهد فى الدنيا الفانية ورغب فى الأخرى الباقية فنعم الراغب الزاهد.

وبعد كتابنا، كتب الله تعالى لنا حظوظاً من رضاه تزكو وتتوفر واستعملنا وإياكم بكل ما تهيأ به لإحراز الفوز لديه ويتيسر من حضرة مراکش حرسها الله تعالى ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده والسعي معمل فى ابتغاء من الله تعالى موافقه وسدده والحمد لله رب العالمين حمداً يتوالى على الأسنة تكرر وتزداد ونستدعى به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعالى من شكره ويحمده والى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه إسعادكم وجعل فى طاعته التى تعبد بها خلقه إصداركم وإيرادكم فانه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما تممنا به بركم ووفينا عرفانكم أنا نوجب لمنصبكم الذى ابرز فى ملتكم على المناصب وافر لرتبتكم فيه أهل دينكم بالشغوف على ما نر مالهم من المراتب فأنتم عندنا لذلکم بالكرمة الخصلة ملحوظان وبالعناية الجميلة محظوظون نوكد من أسباب المواصلة لكم ما حقه ان نوكد ونجدد من عهود الحفاة يتم ما شأنه ان يجدد ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد وفى سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله البشير الذى كان قد وصل بكتابتكم إلينا انصرافاً لم يعد منا فيه بر وإكرام ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام كما انه فى المدة التى قضى له فيها لدينا بالمقام لم نزل نتعهده إثناءها بالإحسان والأنعام وتحمل كتابنا إليكم تعريضاً بما اختار من انصرافه وتوخياً فى ما آثره من ذلك لإسعافه وما قصر له فى حالي مقامه ورحيله ولا عدل به عن خفى البر على أوضح طرقه والله تعالى يرشد فى كل الأحوال لأذكى الأعمال لديه وينجد من الأقوال والأفعال على ما يقرب إليه بمنه ومتى سنح لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه

ان توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله من ترونيه
برسم ما يصلحهم ويجر بهم على معتاد قوانينهم فتخبروه من أهل العقل الراجح
والسمت الحق وممن يستلذ فى النزاهة على واضح السنين وممن يتميز فى
الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن وذلكم هو الذى إذا تعين من قبلكم
مستجماً للصفات المذكورة متحلياً بالخلل المشكورة حسن فى كل ما يستخدم
وتسنى له بذلك اجزل الخبر وأوفره وانتم تفون بهذا المقصود فى ما تعلمون من
اختياركم حتى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لأحد وتعتمدون فيه أجمل معتمد
وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه فى جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب
وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرايب وتبادرون الى بذله
من المكارمة المناسبة لمالككم فى نحلتكم من أناقة المناصب مما نكافى به صدق
مصادقتكم ونتوخى فيه ما لا يعدل عن موافقتكم جزاء لبركم بأمثاله واعتناء بما
يقضى لولاكم بدوامه واتصاله بحول الله تعالى وقوته وهو سبحانه ييسر لنا لنيل
الحسنى والزيادة من فضله ويأخذ ما فى ديننا ودنيانا على أقوم سبيله ويجعلنا
واياكم بما يمنحنا من التوفيق فى أول رجيل من حزب الحق وأهله بمنه وكرمه لا
رب سواه وكتب فى الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين
وستمئة"

"عن الرسالة المحفوظة فى مكتبة الفاتيكان الرسولية برومه برقم
{(A.A.1.XVIII(1802)} وهى الوثيقة الوحيدة من نوعها وعصرها التى تحتفظ
بها مكتبة الفاتيكان.